الإمام علي بن أبي طالب

عليه السلام

موقفه من الحياة الدنيا

حسين بن محمد محمود الحسيني القادري

بابا كال اوغلو

بسم الله الرحمن الرحيم

(اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفّراً ثمّ يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) سورة الحديد الآية 20.

وعن النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله أنّه قال : (إنّ مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا ،وزينتها) متفق عليه .

وفي الخبر : (حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة)

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) :

(إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها ؛ مسجد أحبّاء الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله ؛ اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنّة) عن نهج البلاغة حكمة رقم 126ص 430.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة:

الحمد لله رَبّ العالمين الواحد الأحد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد خالق الحياة الدنيا ابتلاءً واختباراً، ليعلم الَذين آمنوا، وليعلم الكافرين.

والصلاة و السلام على سيَدنا محمد بن عبد الله رسول الله رحمة للعالمين وآله الطيبين الطاهرين سفن النجاة ورواسي الهدى وأصحابه المنتجبين.

وبعد:

فأن أدخل في رحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أراني أدخل في الإسلام ؛ تاريخ دعوته، ومراحل استوائه دولةً في شبه الجزيرة العربية، وقيام الأمَة الإسلاميَة المحمديَة التي هزمت دولتي الكفر الكبيرتين في العالم آنذاك؛ الأمة الوسط عقيدة وشريعة، وأدخل في عالم المؤمن الكامل والموقن التام الإيقان الصالح القيّم الّذي دافع بسيفه عن الإسلام، وقد كان أكثر المسلمين إيمانا وعلماً؛ فقد اجتمعت في شخصه المبارك الميمون القوة، و الشجاعة النادرة، و الإيمان القوي لأعلى درجات التقوى، و التبتل لله عز وجلّ، والعلم الغزير، و العقل السديد .. مما لا عهد للعرب، و الإنسانية جمعاء باجتماع هذه الخصال في شخص واحد من بعد سيدنا محمد (صلى الله عليه و آله وسلم)

و هذا ما نستطيع أن نستشقّه من سيرته، و خطبه، ومن موقفه تجاه الحياة الدنيا؛ قضية الإنسان الكبرى ؛ إذ يبحث الإنسان، و يتساءل عن جدوى حياته، وعن غايتها، و مدى عمله، و منتهى أمله فيها .

وما يحدد سلوك الفرد في الحياة هو ايجابه على هذه القضية؛ و هذا الإيجاب يتم عفواً على الأغلب الأعم بتأثير البيئة و الثقافة التي نشأ فيها الفرد . و الإمام علي (عليه السلام

) أجاب على هذه القضية فطرة، فتجلى سلوكه، ثم أجاب خطابياً، و قد ارتوى ايجابه من ينبوع الإسلام : القرآن الكريم، و من مبلغه سيدنا محمد (صلى الله عليه و آله وسلم) .
ومعلوم أنّ الإسلام قد نبّأ بانقسام الحياة إلى مرحلتين؛ الأولى هي الحياة الدنيا، و هي مؤقتة زائلة، و الثانية هي الآخرة الخالدة الباقية .
وبما أنّ مكانة الإمام علي (عليه السلام) في الإسلام عظيمة كما أشرت آنفاً؛ وقد جاهد في سبيل الله، ونشر رسالته جهاداً لا يضاهى من قبل المسلمين حتى انتصرت الدعوة الإسلامية، و شاهد الوحي ينزل على النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، و كتبه، و فقه الإسلام أكثر من المسلمين المعاصرين له، و تعرض لمحن و تجارب قاسية بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)؛ مارس فيها صنوف الجهاد و الصبر على الفتنة التي ألمّت بالمسلمين .
ولا شك أنه حافظ على وحدة المسلمين بصبره و جهاده، و منع من اندحار دولة المسلمين في الجزيرة العربية، حتى سنحت لها الفرصة لتقيم أنوارها على ثلث الأرض، و تقيم حضارة عزّ نظير لها، و هي اليوم أسطع نوراً و أقوى حجةً في العالم كله؛ ومستقبل الأيام يبشّر بنفوذ نورها العالم أجمع بظهور حفيده الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف
فكان البحث في سيرة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) و خطبه له أهميته العظمى و فائدته الجمّة؛ وهذا البحث لاستكشاف جانب مهم في تجربة إسلامية علوية؛ هي أساس، أو معين كل التجارب الإسلامية اللاحقة في الفكر والسلوك و العلوم؛ إنّ عظمة هذه التجربة هي بكونها من بشر.. صدق، واتبع النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه و آله وسلم)، فهو امتداد واستمرار للسيرة النبوية و تجديدها؛ و ما كان التجديد العلوي انحرافا عن السيرة الأولى المباركة .
بل تحقيقها تحقيقاً خالصاً؛ و أقول خالصاً تمييزاً عن التحقيق النصي و الترديد الصوتي الذي لا يبلغ تأثيره إلا الحناجر و الآذان من دون انصهاره في كيان الفرد النفسي و الفكري و السلوكي .

وهذا أخطر ما نعانيه في حياتنا الإسلاميّة وخطابنا الإسلامي المعاصر، وهو مصداق لقول الإمام علي (عليه السلام) : (حتى صار دين أحدكم لعقة على لسانه) [1]، وهي نتيجة لحالة إنسانيّة منحرفة خطرة من أهمّ أسبابها التعلّق بالمظاهر الدنيويّة من جاه ومال وتسلّط وتجبّر ورياء وسمعة وما أشبه ذلك .

والانحراف عن أهمّ شرط من شروط الإسلام؛ وهو الإخلاص التّام لله تعالى في كلّ مظاهر السلوك الإنساني والنيّة القلبيّة؛ وقد عاينه الإمام علي (عليه السلام) في أعدائه وفي كثير من أصحابه .

وهم بذلك خذلوه، وتثاقلوا عن نصرته، فعانى منهم وهو صاحب الحق والناطق به الّذي أخذ يحذّر، وينهى أصحابه من التعلّق بقلوبهم بالحياة الدنيا، والرّكون إليها، وهو الّذي جاهد جهاداً عظيماً في سبيل الإسلام وإعلاء كلمة الله تعالى؛ فدفع بأغلى ما عند المرء أي روحه التي أبقاها الله تعالى لتستمر في الجهاد و الدعوة إلى أن لاقى وجه ربّه مستشهداً وهو يؤم المسلمين في الصلاة كما كان يؤمهم في الجهاد .

لذا بحثت في الفصل الأول جوانب من سيرته وسلوكه المبارك أثناء الدعوة الإسلامية وانتصارها، وما جرى بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بحثاً عن موقفه تجاه الحياة؛ الموقف العملي الّذي ما خاطب به الإمام إلا عن تمرّس جهيد؛ و هذا الخطاب بحثته في الفصل الثاني؛ فقد كان الإمام عليّ (عليه السلام) ينثر درراً من الحكم والحقائق الظاهرة له (عليه السلام) وهو المؤمن الكامل والمجاهد الأكبر وباب مدينة العلم؛ فوصف الدنيا وصفاً صحيحاً، و أبان حقيقتها إبانة ساطعة لكل ملتقٍ مؤمن، و ذكر أحوال الناس فيها من بين زاهد فيها و متهالك عليها، و دعا للعمل فيها لأجل الآخرة، وإن كان ظاهر العمل متعلقاً بها فلا بد من تقييدها بشريعة الله تعالى لغاية الإحسان في العمل؛ و إتماماً للفائدة تتبعت الأصول الإسلامية لموقف الإمام علي (عليه السلام) ويسيراً مما أفادته قريحته الفنية في الفصل الثالث .

---

[1] نهج البلاغة من خطبة له عليه السلام رقمها 112 ص 131 بتحقيق مؤسسة نهج البلاغة إصدار المستشارية الإيرانية بدمشق.

ولمّا كانت كل الأطراف قد شهدت للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالأفضلية و الخصوصية كانت مصادر سيرة الإمام (عليه السلام) و أخباره في هذا الكتاب لم تقتصر على جهة دون غيرها وكثيراً ما تمت الاستعانة بالمصادر والمراجع الحديثة .
والحقّ أن النصوص العلوية كانت ضابطاً مهما في ترجيح الأخبار؛ والباحث يعتمد كتاب نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعد تتبع الاحتجاج على صحة أغلبه نسبة إلى كلامه عليه السلام ومعتمده على النسخة المحققة و المنشورة عام ١٩٩٧ من قبل المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق بتحقيق الشيخ عزيز الله العطاردي. والصعوبة التي واجهت الكاتب معها هي في دقتها و متانتها وثقلها و الحاجة إلى بحث و تمحيص و رزانة و تذوق سليم صحيح؛ لأن نلج عالمها الغني الفياض بالعلوم والألطاف الروحية و الخلقية . وتمّ إثبات شرح الكلمات الغربية في ذيل الصفحة، وأدعو القارئ الكريم أن يصبر في القراءة، ويكررها، ويتمعن فيها إذا وجد صعوبة في قراءة كلمات الإمام (عليه السلام)، ويستعين بالله جلّ وعلا .

وبعد :

فإنني أسبح في بحرٍ غوره عميق، و أعوم في محيط واسع مع ظلمات الحجب التي تحجبنا عن إدراك كنه هذا البحر بما نملك من وسائل هي أضعف من أن تطوف ببحثنا في محيط ما عند الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

والله ولي الهداية و التوفيق.. و آخر دعوانا أن الحمّد لله ربّ العالمين.

دمشق : 13 ذي القعدة عام 1421

حسين بن محمد محمود بابا كال اوغلو

الحسيني القادري

husyin.bakeri@gmail.com

تمت بعض التعديلات في ٢٧ ربيع الأول ١٤٤٤

الفصل الأول :

الدعوة الإسلاميّة

و

موقف الإمام عليّ (عليه السلام)

كانت الدعوة الإسلاميّة المحمديّة التي دعا إليها رسول الله محمد بن عبد الله القرشي الهاشميّ صلى الله عليه وآله بوحيّ منزلٍ بواسطة الملاك جبريل عليه السلام عن الله تعالى خاتمة الرسالات الإلهيّة لبني آدم . قال الله عزّمن قائل في شأن القرآن، ونزوله على قلب النبي محمد صلى الله عليه وآله ليكون نبيا ورسولا للناس كافة : (وإنّه لتنزيل ربّ العالمين نزل به الرّوح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)[2]

وكانت هذه الدعوة بداية إنذارا قال الله تعالى :

(قم فأنذر وربّك فكبّر)[3]

هذا الإنذار للمشركين في مكّة وما حولها بأنّ دينهم وعقيدتهم حياد عن طريق الحقّ؛ فضلاً عن عملهم الشأن في جوانب كثيرة في الحياة .

وبشرى للمؤمنين قال الله تعالى :

(.. ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً)[4]

وكانت رحمة للعالمين قال الله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)[5]

ورسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلّم كان قبل تحمّل الرسالة من أشراف مكة، من بني هاشم ؛ إحدى أشراف بطون قريش الذين كانوا كما يسمونهم العرب جيران الله، أو جيران بيت الله دلالة على ريآستهم الدينية والروحية للعرب؛ وقد ورثها بنو هاشم من هاشم الذي (سنّ الرحلتين رحلة في الصيف إلى الشام ورحلة في الشتاء إلى اليمن والحبشة)[6]

---

[2] 2 سورة الشعراء , الآيات : 193و194و195.

[3] سورة المدّثر ، الآيتان 2، 3.

[4] سورة الكهف ، الآية 2.

[5] سورة الأنبياء ، الآية 107.

[6] د. نزيه شحادة ، من التارخ الإسلامي ، ص 19.

لذا نزل قوله تعالى :

(لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ..)[7]

وتولّى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية عن أبيه، وهو إذ ذاك زعيم قريش، وشَرُفَ في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه .

وبنو هاشم وقريش هم من ذرية نبيّ الله إسماعيل بن نبيّ الله وخليله سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو رسول الله بالديانة التوحيدية التي أجراها الله تعالى على لسانه، وسمّى ذريته بالمسلمين .. (ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين)[8]

وقال الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو في الحرم يبني الكعبة :

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التّوّاب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنّك أنت العزيز الحكيم)[9]

فما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم من كتاب الله العزيز، والحكمة الزكية المزكّية ؛ استجابة من الله تبارك وتعالى لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام، وما جاء به النبيّ الأكرم محمد صلى الله عليه وآله ؛ لم تعهده العرب، وهم منحرفون عن التوحيد، وعن الإيمان باليوم الآخر ..وسجّل الله تعالى عقيدتهم في كتابه العزيز إذ قال:

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنّون)[10]

وقد كانوا يؤمنون بالخالق جلّ جلاله قال الله : (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله) [11] لكنهم يشركون به وقالوا عن آلهتهم ؛ أنّها تقربهم إلى الله زلفى قال الله تعالى حكايةً على لسانهم :

(ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)[12]

فتحمّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم الدين الخالص لله تعالى قال الله عزّ من قائل:

---

[7] سورة قريش الآية 1

[8] سورة الحج الآية : 78.

[9] سورة البقرة ، الآية 127، 128.

[10] سورة الجاثية ، الآية 24.

[11] سورة لقمان ، الآية 25.

[12] سورة الزمر , الآية 3.

(إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ فاعبد الله مخلصاً له الدين)[13]

ونبّه ودعا إلى ذلك من حوله . قال الله تعالى:

(ألا لله الدين الخالص)

وذكر بواقعية الحياة الآخرة. قال الله تعالى :

(إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة)[14]

وبفناء الحياة الدنيا وزوالها قال الله تعالى :

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناه حصيداً كأن لم تغن بالأمس) سورة يونس الآية24

وإلى آخر مفردات الإيمان ..

ومما سبق تبيّنت أصالة قضية الحياة الدنيا في الإسلام بأنّها زائلة ينتقل النّاس عنها بالموت إلى الآخرة .

ولفظ الحياة الدنيا لفظ مركب من الحياة وهو بديهي المعنى تتفاوت مصادقيها تبعا للرؤى والعقائد والفلسفات؛ والدنيا من الدني القريب أو الدنيء السافل وهو في عرف أهل الهيئة (علم الفلك القديم) تحت فلك القمر.. بينما لا مانع اليوم من شمول الدنيا للكون المكتشف حديثا..

وأمّا الذين ما كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة؛ فمنهم كانوا على قول الشاعر :

(ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى   وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهنّ سبقي العاذلات بشربةٍ   كميت متى ما تُعلَ بالماء تزبد

وكرّى إذا نادى المضاف مجّنباً   كسيد الغضا نبهته المتورّد

وتقصير يوم الدّجن ، والدّجن معجبٌ ببهكنة تحت الطّراف المعمّد

وقول الآخر :

متى يأت هذا الموت لا تلفى حاجة   لنفس إلا قد قضيت قضاءها)[15]

هذه الذهنية جعلتهم وغيرهم؛ ممن لا يؤمنون بالحياة الآخرة وإلى يومنا هذا يعيشون عيش الباحث عن إشباع تامّ للملذات.. حتى صارت هي المبرر الوحيد للحياة، فكان هذا من جملة الدوافع المهمّة

[13] سورة الزمر ، الآية 2.

[14] سورة الواقعة ، الآيات1، 2، 3 .

[15] محمد زكي العشماوي ، القصيدة العربية في الجاهلية ، ص 228.

للظلم والتعدّي واليأس والقنوط ؛ إذا أمسكت عن الاحتواء والتحصيل؛ والملذات لا تحتوى مهما حاول الإنسان في الحياة الدنيا.. وما نشاهده اليوم عند المترفين في الأمم عامة خير دليل .

لكن بعدما نزل الإسلام، ودعا للإيمان باليوم الآخر؛ ظهرت النظرة الجديدة للحياة؛ لكن استقرت كما هو معاين على المؤمنين حقاً؛ فلقد صار المؤمنون يعلمون أن حياتهم هذه هي حياة لتحصيل الثواب الذي عند الله تعالى وحده؛ فأيّ عمل هو لوجه الله تعالى؛ وصار المؤمنون ينتهجون سلوك المتقيد بالشريعة؛ فلم تعد الحياة على قول الشاعر ذاك عندهم، بل كلّها جهاد وعمل لنشر الإسلام ومحق الظلم والباطل والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وانتظار جزاء الله تعالى في هذه الدنيا، وأعظمها الاستشهاد، والآخرة أعظم أجراً .

وصار من العرب المؤمنين من يدخل المعركة، ولا همّ له إلا الاستشهاد في سبيل الله تعالى، فغلبت الفئة القليلة الصابرة المؤمنة الفئة الكثيرة المشركة الظالمة بأسلحة بشرية هي قوة الإيمان، وتمكّنه في النّفوس، و الصبر الجلد، واحتوائه السلوك؛ فكان نصر الله تعالى لمن استجاب دعوة رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم. فقال الله : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[16]

وكان الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو الأبرز في تاريخ الدعوة الإسلامية، ممن سلك هذا المنهج . وقد ولد في بطن الكعبة.. وأبوه أبو طالب عمران بن عبد المطلب بن هاشم عم الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله..

و كان أول الناس إسلاماً، وإتباعا للنبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلّم مع خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة ؛ يعبدون الله وحده دون غيرهم من الناس في مكة. فقد ورد أنّ أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ (علي رضي الله عنه) [17]

ولإسلام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ما زال في طور الفتوة، والإقبال على الحياة بذهنية صافية غير ملوثة بأدران الجاهلية والشرك أثره المهم والخطير في تكوين الإيمان الراسخ في نفس علي بن أبي طالب عليه السلام، وبالتالي تكوّن العقيدة والفكر والسلوك المستقيم على شرع الله تعالى، فبدلاً من مجاراة عادات مجتمعه الفاسدة ؛ تشبّع، ونما بماء الإسلام الصافي الزلال من مصدره

---

[16] سورة محمد ، الآية : 7.

[17] 19 الحافظ النسائي ابن شعيب , خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب , ص 33 تحقيق محمد باقر المحمودي .

القرآن الكريم، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان ربيبه، ورفيقه في دعوته المظفرة .

والشواهد المسلكية لهذا التشبّع والنمو توالت في مسيرة الدعوة الإسلامية ؛ فمن ثباته الرّاسخ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودعمه ودفاعه عنه صلى الله عليه وآله وسلم وهو صبي عندما كان الصبيان يؤذون النبي صلى الله عليه وآله وسلم[18]، إلى الفداء بالروح له وهو شابّ في حادثة الهجرة العظيمة التي كشفت عن درجة إيمان ويقين علي بن أبي طالب (عليه السلام) . وموقف مثل هذا لم يسلكه الإمام علي (عليه السلام) إلا ونفسه قد نمت نمواً من صافي ماء الإسلام، وتنظر إلى الحياة الدنيا التي هي عشق الإنسانية ومطلبها المفقود والمتحسّر عليه نظرة ملؤها الإيمان بالله تعالى، وبأنّها طريق للعمل الصالح وتحصيل للأجر والثواب من الله تعالى، بل نظرة بأنها لا تساوي شيئاً مقابل إرضاء الله تعالى والجهاد في سبيله نظرة تقبل لنفسها أن تقتل لأجل إيصال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى موطن الأمان من أعداءه .

لقد كان هذا الموقف أهمّ ظاهرة عملية مبكرة لذلك الفرد المقبل على الحياة المفعم بالإيمان الصادق الصافي من خلجات أهواء النفس وانحرافاتها وضعفها أمام لذة الحياة الدنيا ومظاهرها وشهواتها في وقت ما كان للإسلام دولة قائمة ولا للمسلمين بوتقة حماية، ولا تحقيق دنيوي ظاهري للدعوة الإسلامية؛ فقد جاءت مغامرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في وقت هو أحرج ما مرّ على الدعوة الإسلامية إذ المشركون من قريش قد أتمروا على قتل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والمسلمون تعرضوا للتنكيل والتعذيب الشديد؛ مما دفع نفراً منهم للهجرة إلى الحبشة، ورسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه من باقي المسلمين خرجوا للتو من حصار قريش لهم ليصدموا بموت أبي طالب وخديجة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله أم المؤمنين السندين الذين كان يتكأ عليهما في دعوته بمكة، وكان المخرج هو الهجرة إلى يثرب لأنّ نفراً من أهلها أسلموا، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الدفاع عنه، وعن دعوته ما يدافعون عن أنفسهم في العقبة بعد موسم الحج إذ استقبلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سراً فبايعوه .

والوصول إلى يثرب وقريش يأتمرون على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكاد أن يكون مستحيلاً .

---

[18]20 السيد محسن الأمين العاملي الدمشقي , في رحاب أئمّة أهل البيت , المجلد الأول , ص 143.

إذن كانت الدعوة الإسلامية تمرّ بحالة حرجة جداً تتطلب مؤمنين بها من أمثال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فيجعل من نفسه فداءً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فينام في فراشه بأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يخدع المؤتمرين على قتله، ويفسح المجال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرج من مكة، ويبتعد عنها وأولئك يظنون أنّه في داره . و نجد في مسلك الإمام علي عليه السلام إعلاناً صادقاً وحيّاً لموقفه تجاه الحياة الدنيا ؛ بأنّه يضحي بها في سبيل ما آمن به، وعقد عليه نفسه، و ما آمن به يمر بمرحلة حرجة جداً صعبة غير واضحة المصير، إلا لمن وثق ثقة تامّة بصدق وحق ما آمن به . وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق إلى يثرب تسجيلاً لهذه الحادثة قوله (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ..) سورة البقرة الآية 207 .[19]
وهذا هو موقف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فيما تلا من أحداث مرت على الدعوة الإسلامية كانت تلك الأحداث الجسام قد أدت إلى تثبيت الدعوة وتحولها إلى بناء الدولة والمجتمع الإسلامي .

* الإمام علي ومعارك انتصار الدعوة الإسلامية:

قال الله تعالى (أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا ربنا الله و لولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعضٍ لهدّمت صوامع وبيع و صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويّ عزيز)[20]
دخلت الدعوة الإسلامية بعد نزول هذه الآيات الكريمات مرحلة المعارك الحربية ضد المعتدين المشركين، وكانت معركة بدر الكبرى (فقد تناما إلى مسامع النبي صلى الله عليه واله وسلم أن أبا سفيان بن حرب قادم من الشام بتجارة في عير ؛ قدرت بألف ومعه ثلاثون رجلا من قريش، أو أربعون، وقيل قريباً من سبعين، وجلهم من التجار ،وسمع أبو سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم يريده ؛ فبعث يستنفر قريشاً
ويخبرها بالأمر)[21]

---

[19] انظر كتاب علي في القرآن للسيد صادق الشيرازي ففيه تخريج للآية وموارد تفسيرها تخريجاً وافياً.
[20] سورة الحج الآية 38و39و40.
[21] د. نزيه شحادة , من التاريخ الإسلامي , ص 83.

(فتجهز الناس بمكة إلا أبا لهب بن عبد المطلب، وبعث من استأجره بدين عليه. وبلغ عدد المشركين تسعماية وخمسون رجلاً، وقيل ألفا، وكانت خيلهم مائة فارس سبعمائة بعير، وبينهم أشراف قريش وسادتها، وخرجوا على الصعب والذلول (...) (أمّا المسلمون) فقدموا بدرا وعددهم آنئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ولم يكن معهم إلا فارسين في سبعين من الإبل ؛ كانوا يتعاقبون على الواحد منها بين الرجلين والثلاثة والأربعة)[22]

وبعد تغيّر وجهة القافلة القرشية، ووصول نبأ هروبها من المسلمين، وبعد إصرار كثير من القرشيين على الحرب، وتقبّل المسلمين عامة للمواجهة العسكرية[23] بدأت المعركة بالمبارزة، وتجلت النفوس المؤمنة لتواجه الكفر والشرك ؛ فكان أول من برز إلى جبابرة قريش علي وعمه الحمزة وابن عمه عبيده بن الحارث بن عبد المطلب، فكانت الضربة الأولى التي ضربت معنويات ذلك الجيش الّذي يعتز بعدده ،وعتاده، وأطاحت برؤوس أولئك الطغاة (وبعثت في نفوس العرب المشركين الخوف والذعر والجزع من الهاشميين وحدهم لا من أولئك الّذين كانوا يرون قريشا لا تقهر ولا تغلب، ويحذرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها)[24]

وليس لهذا الموقف أصل إلا الإيمان القوي ،واليقين التام، و الصبر الجميل في مواجهة المشركين. (حتى جاء في الدر المنثور في ذيل تفسير الآية (أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض) أنّ ابن عساكر أخرج عن ابن عباس في تفسيرها أنّ المراد من الّذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ عليّ وحمزة وعبيده بن الحارث، والمراد بالمفسدين في الأرض، عتبة، وشيبة والوليد بن عتبة)[25]

أجل... الإيمان الكامل والعمل الصالح اللّذان يجعلان المرء لا يخضع لأهواء نفسه وتعلقها بملذات الحياة الدنيا الزائدة عن الحاجة كما حصل إذ (خاض علي ،والحمزة ،وأبطال المسلمين في وسط المعركة، ونسي كلّ واحد منهم نفسه وكثرة عدوه فتطايرت الرؤوس عن الأجساد، وأمد الله المسلمين بالقوة والعزيمة والثبات؛ وأسر المسلمون كلّ من عجز عن الفرار حتى بلغ الأسرى سبعين رجلا،

---

[22] المصدر نفسه , ص 84 .

[23] المصدر نفسه , بتصرف.

[24] هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمة الإثني عشر , الجزء الأول , ص185.

[25] المصدر نفسه , ص 189.

وعدد القتلى اثنين، وسبعين رجلاً)[26] (وقتل عليّ وحده نصف عدد القتلى، واشترك مع المسلمين في النصف الآخر)[27]

ومن أصداء المعركة التاريخية أنّه (دخل رجل من بني كنانة على معاوية بن أبي سفيان، فقال له هل شهدت بدراً قال : نعم قال مثل من كنت قال غلام أمرد مثل عطباء الجلمود قال فحدثني ما رأيت، وحضرت قال : ما كنّا شهودا إلا كغياب، وما رأينا ظفرا أوشك منه . قال : فصف ما رأيت ؟ قال : رأيت علي بن أبي طالب غلاما شابا ليثا عبقريا ؛ يفري الفري لا يثبت له أحد إلا قتله، ولا يضرب شيئاً إلا هتكه، ولم أر أحدا من الناس يحمل حملته ،ويلتفت التفاته)[28]

وتستمر الخطوب والمواقف الحرجة جدّاً في تعرض الدعوة الإسلامية واضعة المسلمين في أصعب الامتحانات وأشق المواجهات وأقسى الظروف كما حصل في معركة أحد، ويكون علي بن أبي طالب عليه السلام مرة أخرى المقدام الشجاع المندفع بحرارة الإيمان العظيم الّذي يمتلكه وعفته عن الحياة في سبيل الله تعالى .

إذ أمست قرش منكوبة بهزيمتها النكراء في بدر قد جللها الحزن والفجيعة، فإنها أبت إلا أن تصبح منتقمة لهزيمتها وقتلاها، (فتقدم ثلاثة ممن أصيب آبائهم، وأبنائهم وأخوتهم في بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب، و من كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلّنا ندرك ثأرنا منه بمن أصاب منا، ففعلوا؛ وبدأت قريش تعمل في الدعاية بين العرب كافة لتأليب العرب ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.. وعلى رأس أولئك عمرو بن العاص، فجمعوا جمعا من ثقيف وكنانة ومن أهل تهامة و الأحبيش، إضافة إلى ما فعله جبير بن مطعم من الاستعانة بغلامه الحبشي، وكلفه بقتل حمزة .

وصادف يوما الأربعاء خروج قريش إلى المدينة لخمس خلتن من شهر شوال .. فأقبلوا، ونزلوا بعين في جبل ببطن السبخة على شفير الوادي مما يلي المدينة، ومعهم مائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، والظعن خمس عشرة امرأة . وكان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل، وعبد الله بن أبى ربيعه على الرماة

وجاء الخبر للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من عمه العباس بعدتهم وعد يدهم مع رجل من بني غفار استأجره، وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بليلها . واستشار الرسول صلى الله عليه

---

[26] المصدر نفسه , ص 188.

[27] المصدر نفسه , ص 188.

[28] المصدر نفسه ,ص 190.

واله وسلم في أمر الخروج للقتال أم البقاء داخل المدينة، وهذا ما ألمح إليه؛ لكن الصحابة انقسموا فريقين، ورجحت كفة الّذين رأوا الخروج لمصلحة المسلمين)[29]

(خرج رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في ألف من أصحابه ؛ فيهم مائة دارع، ولم يكن من الخيل غير فرسين ؛ حتى إذا كان بالشوط أنخذل عنه عبد الله بن أبي الصلت بثلث الناس وهو يقول : أطاعهم وعصاني، والله ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا، أيها الناس .

ونزل رسول الله صلى الله عليه واله وسلم الشعب من جبل أحد، وجعل ظهر الجيش إليه، وأمر عبد الله بن جبير بأن يرابط على التل المقابل لجبل أحد ومعه خمسون راميا، وأمرهم بعدم ترك أماكنهم؛ وبدأت المعركة يوم السبت)[30]

وتجلت شجاعة الإمام علي عليه السلام في عدة مواقف في المعركة منها :

(أن طلحة بن عثمان قام، فقال : يا معشر أصحاب محمد ؛ إنكم تزعمون إن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ؛ فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي إلى الجنة، أو يعجلني بسيفه إلى النار! فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : والذي نفسي بيده لا أفراقك حتى أعجلك بسيفي إلى النار، أو تعاجلني بسيفك إلى الجنة فضربه علي، فقطع رجله فسقط، فانكشفت عورته، فقال : أنشدك الله، والرحم يا ابن عم، فتركه، فكبّر رسول صلى الله عليه وسلم، وقال لعلي أصحابه : ما منعك أن تجهز عليه ؟ قال : إن ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحيت منه)[31]

فانظر إلى صدق الإيمان وتقبّل الموت في سبيل الله تعالى وتصديق وعده دون هيبة ولا وجل لفقدان الحياة وهو الشاب المقبل عليها.

(وانزل الله نصره ودارت المعركة على المشركين، ودخل المسلمون عسكرهم ينهبون، وسقط لواء المشركين ..)[32]

وتجلى الموقف الثابت أو البعيد عن التعلق بالحياة الدنيا وحبّ البقاء فيها للإمام علي بن آبي طالب في مواجهة المشركين وقد جرت معهم رياح المعركة بسبب مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه واله وسلم من قبل الرماة الذين على الجبل، فالتف المشركون على المسلمين، وأعملوا سيوفهم فيهم،

---

[29] د. نزيه شحادة , من التاريخ الإسلامي , ص 93.

[30] المصدر نفسه , ص94.

[31] محمد رضى , الإمام علي بن أبي طالب , رابع الخلفاء الراشدين , ص23 و أقول : لاشك أن عمرو بن العاص استفاد من هذه الحادثة , فاقتدى بها في مبارزته للإمام علي في صفين بأن كشف عن عورته فتركه الإمام .

[32] د . نزيه شحادة , من التاريخ الإسلامي , ص 95.

وتخاذل الكثير من معسكر المسلمين حتى وصل وطيس المعركة حول رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، وكاد أن يلقى ربّه شهيدا، و سرت شائعات بذلك (فما بقي معه إلا نفر قليل من الأنصار، و علي بن أبي طالب يدفعون عنه غارات قريش و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مغمي عليه، فلما أفاق قال لعلي : ما فعل الناس. قال : (نقضوا العهد و ولوا الدبر)[33]

(و قتل علي ثلاثة من أصحاب الألوية . و أبصر الرسول صلى الله عليه و آله وسلم بجماعة من مشركي قريش، فقال لعلي : أحمل عليهم . فحمل ففرق جمعهم، و قتل عمرو بن عبد الله الجمحي، ثم أبصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي : أحمل عليهم . فحمل ففرق جماعتهم، و قتل شيبة بن مالك أحد بني عامر بن لؤي، فقال جبريل عليه السلام : يا رسول الله ؛ إن هذه للمواساة . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : إنه مني و أنا منه . فقال جبريل : و أنا منكما . فسمعوا صوتاً :

لا فتـى إلا علي　　　　و لا سيف إلا ذو الفقار

ولمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهله بعد غزوة أحد ناول سيفه ابنته فاطمة عليها السلام فقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنيه . و ناولها علي عليه السلام سيفه وقال : وهذا فاغسلي منه . فو الله لقد صدقني اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيفة، و أبو دجانة سماك بن خرشة .

قال الطبري : و زعموا أن علي بن أبي طالب حين أعطى فاطمة عليها السلام سيفه قال :

أفاطم هـاك السيف غير ذميـم　　　　فلست برعديد ،و لا بمليم

لعمري لقد قاتلت في حـب أحمد　　　　و طاعة رب بالعباد رحيم

و سيفي بكفي كـالشهاب أهـزه　　　　أجد به من عاتق و صميم

فما زلت حتى فض ربي جموعهم　　　　وحتى شفينا نفس كل حـليم)[34]

و البيت الثاني يكشف ذلك الدافع الضمني للإمام علي عليه السلام في قتاله، و شجاعته التي ضُرب بها المثل، و صارت قدوة كل طامح في عالم القوة و الشجاعة، ولكن هيهات . فلقد كان حب أحمد وطاعة رب العالمين فوق كل حب، و طاعة.. سواء لامرأة، أم قبيلة، أم أي انتماء ينتمي إليه الإنسان هذا عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المتواترة مواقفه تجاه الحياة الدنيا ؛ في خضم التعارك،

---

[33] د . نزيه شحادة , من التاريخ الإسلامي , ص 95.

[34] محمد رضى , الإمام علي بن أبي طلب , رابع الخلفاء الراشدين ص 24.

و التصارع بين الدعوة الإسلامية الحق، و بين مناوئيها من حزب الشرك و الكفر، في أحوج المواطن، و أصعب المواقف التي يكون فيها مصير الدعوة الإسلامية، و مبلغها سيدنا محمد صلى الله عليه و آله و سلم في مهب الاحتمالات المتعددة؛ لكن الله تعالى قال، و حكم : (لأغلبنّ أنا و رسلي)[35].

و لعل من أهم تلك الموطن التي كشفت عن مدى عمق الإيمان العلوي، و صدقه، و إخلاصه في سلوكه، و موقفه من الحياة، و هو يقحم نفسه في الخندق، و هو اسم الغزوة التي غزاها المشركون من قريش، و من حالفهم من العرب ؛ بتحريض من اليهود على المسلمين (إذ خرج نفر من اليهود، و العرب إلى مكة يؤلبون قريش و أتباعها إلى حرب محمد عليه الصلاة والسلام، فقالوا لقريش : نحن معكم حتى نستأصله . قال أبو سفيان : مرحباً و أهلاً .

و تجهزت قريش، و أحابيشهم، و من تبعهم من العرب، فكانوا أربعة آلاف، و عقدوا اللواء في دار الندوى، و قادوا معهم ثلاث مائة فارس، و كان معهم من الظهر ألف و خمسماية، و لاقتهم بنو سليم بمر الظهران في سبعمائة، و بنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد الأسدي، و خرجت غطفان، فلما فصلت قريش من مكة إلى المدينة خرج ركب من خزاعة إلى النبي عليه الصلاة و السلام، فأخبروه بفصول قريش فندب الناس، و أخبرهم عن خبر عدوهم، و وعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا .

فأشار سلمان الفارسي بالخندق، و قال له : (يا رسول الله أنا إذا كنا بأرض فارس، و تخوفنا الخيل خندقنا علينا) . فأخذ النبي برأي سلمان، و حفر الخندق في ستة أيام، و شارك هو بحفره، و كان ينقل التراب مع الصحابة و يقول :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة   فبارك في الأنصار و المهاجرة

و اعترضتهم صخرة كبيرة حاروا في أمرها فشرع النبي بتفتيتها، و الشرر يتطاير منها فقال في الشرارة الأولى : إنّ الله فتح عليّ بها اليمن، و الثانية : فأنّ الله فتح عليّ بها الشام و المغرب، و أما الثالثة : فأنّ الله فتح علي بها المشرق .

و لما فرغ من الحفر جعل له أبواباً، و جعل على الأبواب حرساً، و خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، و جعلوا ظهورهم إلى سلع – موقع قرب المدينة - و ضربوا معسكرهم هناك، أمّا النساء و الأطفال فقد جعلوا في الأطام – الحصون – و أقبلت قريش بعشرة آلاف من أحابيشهم، و من تبعهم

---

[35] سورة المجادلة , الآية : 21.

من بني كنانة، و أهل تهامة نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا : (و الله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها)[36]

و أخترق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الخندق ليواجه عمرو بن ود العامري الذي هرب منه، و جبن من ملاقاته الصناديد، و قد تحدى المسلمين مبارزاً فما تحركت في نفس أحد الجرأة في فقد الحياة، أو رد تحدي هذا المشرك العدو، إلا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، و ردّ تحديه (فأذن النبي صلى الله عليه وآله عند ذلك لعلي عليه لسلام، و أعطاه سيفه، و ألبسه درعه و عمامته، و رفع كلتا يديه و قال : (اللهم إنك أخذت عبيده يوم بدر، و حمزة يوم أحد، و هذا علي أخي ابن عمي، فلا تدعني فرداًو أنت خير الوارثين)

فبرز إليه علي عليه السلام و هو يقول :

لا تعجلن فقد أتاك   مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية و بصيرة وال   صدق منجي كل فائز
إنـي لأرجا أن أقيم   عليك نائـحة الجنـائز
من ضربة نجلاء يبقى   صيتها بعد الـهزاهز

و قف له عمرو بن عبد ود بجبروته و كبريائه مستهيناً به ينظره بعين ساخرة و في نظرته غرور و تيه و كبرياء و يقول له بعد أن ينتسب إليه : ليبرز إلي غيرك يا بن أخي من أعمامك من هو أشد منك، فإني أكره أن أقتلك ؛ لأن أباك كان لأبي صديقاً، و كنت له نديماً، و أضاف إلى ذلك الرواة أن علياً قال له : يا عمرو إنك تقول ما دعاني أحد إلى خلال ثلاث إلا و أجبته، و لو إلى واحد منها، و أنا أدعوك إلى الإسلام فضحك منه، و قال دع عنك ذلك . فإني لا أترك دين الآباء، و الأجداد . فقال : أدعوك لأن ترجع بهذا الجيش الذي معك . فقال : لا أدع العرب تتحدث بفراري . فعندها قال له أمير المؤمنين : أما إذا أبيت الإسلام، و الرجوع بمن معك فإني أدعوك إلى النزال و الحرب . فقال له : يا بن أخي ليبرز ألي من هو أسن منك، فإني لا أحبّ أن أقتلك . فقال له علي : و لكن أحبّ أن أقتلك . فاستشاط غضبه، و نزل عن فرسه، و عقر، و حمل على علي، و ضربه على رأسه، فاستقبلها بالدرقة، فقدها السيف، و نفذ منها إلى رأسه فشجه، و بقي محتفظاً بثباته، و توالت عليه الضربات يحيل عنها ثم كر عليه علي عليه السلام، فضربه على حبل عاتقه ضربة كان دويها

---

[36] د . نزيه شحادة , من التاريخ الإسلامي , ص 101.

كالصاعقة أرتج له المعسكران، فسقط يخور بدمه كالثور، و ارتفعت غبرة حالت بينهما و بين الجيشين)[37]

(فكبر الإمام علي، وكبر رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، وكبر المسلمون فرحا بنصر الله سبحانه، وتوجه الإمام إلى ابن عمرو، فقتله في الخندق، وفر الآخرون، و كفى الله المؤمنين القتال، و قال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم :

(برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه) [38] .(ولضربة عليّ يوم الخندق تعادل عمل الثقلين)[39] أي عمل الإنس والجن إلى يوم القيامة.

و ارتفعت معنويات المسلمين بمقتل عمرو بن عبد ود العامري على يد علي بن أبي طالب عليه السلام، و انخفضت معنويات المشركين إلى أن أجلاهم الله تعالى عن المدينة ليرتدوا خاسئين منهزمين .

(ولما نعي عمرو بن ود إلى أخته قالت : من قتله ؟ و من الذي اجترأ عليه ؟ فقيل لها قتله علي بن أبي طالب . فقالت : لقد قتل الأبطال، و بارز الأقران، و كانت ميتته على يد كفئ كريم من قومه، و أنشئت تقول :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله　　لكنت أبكي عليه دائم الأبد

لكن قاتله من لا يعاب به　　قد كان يدع أبوه بيضة البلد

من هاشم في ذراها و هي صاعدة إلى السماء تميت الناس بالحسد

قوم أبى الله إلا أن تكون لهم　　كرامة الدين و الدنيا بلا لدد

يا أم كلثوم أبكيه ولا تدعي　　بكاء معولة جرى على ولد)[40]

و مرت ثلاث معارك كبرى على الدعوة الإسلامية والإمام علي (عليه السلام) يتقدم في العمر شاباً ، و يعظم جهاده لدرجة رد جيش كامل بمبارزة واحدة ؛ حتى أنطق الله الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم باجتياز علي بن أبي طالب الامتحان في الحياة بنجاح باهر (إذ جاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم من أناس من قريش فقالوا يا محمد إنا جيرانك و حلفائك[41] (وذلك بعد صلح الحديبية)، و إن أناساً من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة في الدين، و لا رغبة في الفقه، و إنما

---

[37] هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمة الإثني عشر , ص211.

[38] ابن إسحاق . نقلاً عن كتاب الإمام عليّ ومكانته في البيان النبوي تأليف محمد محمود القادري ص116 .

[39] 40 المصدر نفسه .

[40] هاشم معرف الحسني , سيرة الأئمة الاثني عشر, ص 213 .

[41] وذلك بعد عقد صلح الحديبية .

فروا من ضياعنا و أموالنا فأرددهم إلينا . فقال النبي لأبي بكر : ما تقول ؟ فقال : صدقوا إنهم لجيرانك وحلفائك . فتغير وجه النبي صلى اله عليه و إله و سلم و قال لعمر : ما تقول ؟ قال صدقوا إنهم لجيرانك و حلفائك . فتغير وجه النبي صلى الله عله و آله وسلم، ثم قال :

((يا معشر قريش و الله لتنتهن، أو يبعث الله عليكم رجلاً فيكم أمتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين، أو يضرب بعضكم)).

قال أبو بكر : أنا هو يا رسول الله ؟ قال: لا . قال عمر : أنا هو يا رسول الله ؟ قال: لا و لكن الذي يخصف النعل. و قد كان أعطى علياً نعلاً يخصفها)[42]

إذاً صار للدعوة الإسلامية دولة لها رجالها، و لها سطوتها و معاهداتها، و لكن لا تنتفي الأعداء مهما قامت معارك، و مهما تحققت الانتصارات، فكان لابد من مواجهة أعداء هم (أشد عداوةً للذين آمنوا)، وهم الذين ما ينفكون عن إشاعة الفساد في أي أرض أحلوا فيها، وهم الذين ألبوا المشركين على دولة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذين نقضوا العهد الذي كان بين المسلمين و بينهم، فكانت معركة خيبر بعد إجلاء اليهود من المدينة إثر نقض العهد و الخيانة العظمى بتأليب الأحزاب ضد المسلمين و التعاون معهم .

و المعركة هذه من جهة أخرى تهمنا في بحثنا إذ لها دلالتها على بروز قائد مؤمن كامل الإيمان صادق مقاتل ثابت في المعارك في أشدها حرجاً وفي أخطرها تبعةً، و ليتوج بهذه المعركة بأغلى تاج وأعظم نعمة و هي محبة الله تعالى و رسوله صلى الله علية و آله و سلم . فأي جزاء و شهادة أعظم من هذا! ومن ذا يستحقها غير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بعد اجتيازه الامتحانات الصعبة السالفة من مبيته في فراش رسول الله و قتاله و مقاومته الصلبة ضد المشركين في المعارك ! و كل تلك المسالك كانت تجليات ذلك الإيمان الراسخ واليقين التام بالله تعالى في نفس الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام و موقف من الحياة يجعلها مطية له لا أن يكون هو المطية لغرورالحياة، فانطق الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالمحبة بعد ما أنطقه باجتياز الإمام الامتحان بنجاح وهو الشاب في ربيع عمره، و أراد رسول الله صلى الله عليه و إله و سلم أن يسند الراية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بعدما تعذر فتح حصون خيبر على غيره من المسلمين الذين حاولوا بعد حصار الحصون و نشوب المعارك الضارية بينهم و بين اليهود .

---

[42] النسائي , ابن شعيب , خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه , ص 85 . يخصفها : يصلحها .

(ولما بلغ الجهد بالمسلمين، و نفذ أكثر زادهم قال النبي صلى الله عليه و آله وسلم بصوت رفيع يسمعه أكثر المسلمين : ((و الله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله و رسوله، و يحبه الله ورسوله)) .

فتطاولت لذلك الأعناق، و رجا كل واحد أن يكون هو صاحبها . قال العلامة الحلي في كتاب نهج الحق : جاء في مسند أحمد و صحيحي مسلم و البخاري من طرق متعددة وفي الجمع بين الصحاح الستة عن عبد الله بن بريده، وذكر الحديث بتمامه .

و كان علي أرمد العين، فمسح رسول الله صلى الله عليه و آله على عينيه بيده، و دعا له، فبرئت عيناه من ساعته، وقال له : ((خذ، و لا تلتفت، حتى يفتح الله عليك، و قاتلهم، حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فإذا فعلوا ذلك ؛ منعوا منك دمائهم، و أموالهم .))

وقال سلمة بن الأكوع : فانطلق علي يهرول هرولةً، ونحن خلفه نتبع أثره حتى ركز الراية بين حجارة مجتمعة تحت الحصن، فأطل عليها يهودي من رأس الحصن، و قال من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب . فقال اليهودي : علوتم وما أنزل على موسى . و خرج اليهود من حصونهم يتقدمهم أبطالهم الأشداء، و فيهم الحارث أخو مرحب و من شجعانهم المعرفين، فحمل بمن معه على المسلمين ، فوثب علي عليه، و ضربه بسيفه فخر صريعاً، ثم حمل بمن معه على اليهود، فتفرقوا بين يديه بعد مقتل الحارث و جماعة منه، و فروا إلى داخل الحصن، فعز على قائدهم مرحب مصرع أخيه وهزيمة من كان معهم، وأخذه الحماس، فخرج من الحصن مزهوا بشجاعته وبطولاته وعليه درعان وقد تقلب بسيفين ومعه رمحه وهو يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاك السلاح بطل مجرب

إذا السيوف أقبلت تلتهب اطعن أحيانا وحينا اضرب

فبرز إليه علي وهو يقول :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات شديدة قسورة

أكليكم بالسيف كيل السندرة

فاختلف هو وعلي ضربتين، فضربه علي بسيفه، فقدّ الحجر الذي كان قد ثقبه، و وضعه على رأسه مكان البيضة، وقدّ المغفر، وشق رأسه نصفين حتى وصل السيف إلى أضراسه . وكان لضربته كما تصفها أكثر المصادر التاريخية دوي كالصاعقة، ولما أبصر اليهود ما حل بفارسهم مرحب ولوا منهزمين ؛ واستولى المسلمون على الحصن بما فيه. وجاء في سيرة ابن هشام عن ابن أسحق بسنده

إلى أبي رافع مولى رسول الله أنّه قال : خرجنا مع علي ابن أبي طالب حين بعثه رسول الله برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله؛ فقاتلهم، وضربه رجل من اليهود بالسيف، فاتقاه بترسه، فوقع الترس من يده، فتناول باباً كان عند الحصن، وأخذه بيده مكان الترس، وظل بيده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ . ومضى الراوي يقول : وقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد أن نقلب ذلك الباب، فلم نستطع)[43]

واتجه المسلمون صوب مكة يريدون فتحها بعد أن نقضت قريش صلحاها الذي وقعته مع رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في الحديبية .

(وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد عشرٍ مضيت من رمضان في عشرة آلاف من المسلمين؛ أوعب معه المهاجرين والأنصار، فلم يتخلف منهم أحد، ودخل النبي صلى الله عليه واله وسلم مكة يوم الاثنين لعشرة بقيت من شهر رمضان، و أمر بلالاً أن يؤذن يوم الفتح من على ظهر الكعبة ليغيظ بذلك المشركين، وتساقط ثلاثمائة وستون صنما كانت لقريش قد نصبتها حول الكعبة، وقرأ الرسول سورة النصر (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا))[44]

و تثبتت الدعوة الإسلامية، و استوت دولةً كادت شبه الجزيرة العربية أن تدخل في هذه الدولة الناشئة سوى قبيلة هنا أو مدينة هناك منهم قبيلة هوازن التي أعدت العدة، و جهزت المقاتلين لصد المسلمين، و إيقاع الهزيمة بالدعوة الإسلامية و دولتها الفتية .

(و خرج النبي عليه الصلاة و السلام من مكة و معه أثنا عشر ألفاً من المقاتلين ألفان من أهل مكة ممن أسلم طوعاً و كرهاً و عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة، و سار جيش المسلمين بهذا العدد الضخم الذي لم يتأت لهم في معركة من قبل، فبدأ يداخلهم الغرور و الزهو بكثرة عددهم و عتادهم حتى قالوا : لن نغلب اليوم من قلة)[45]

و سجل الله تعالى في كتابه المنزل العزيز الحادثة مبيناً ضعف الإيمان، و تخلل الظنون في الكثيرين إذ قال تعالى : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت الأرض عليكم بما رحبت ثم وليتم مدبرين)[46]

---

[43] 44 هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمة الإثني عشر , ص 224 ج 1.

[44] د . نزيه شحادة , من التاريخ الإسلامي , ص 115.

[45] المصدر السابق , ص 119.

[46] سورة التوبة , الآية : 25.

وظهر المنافقون، وقال أحدهم كاشفا عن نفسه : الآن بطل سحر محمد.
لكن الله تعالى حكم بانتصار دينه ومن آمن به حق الإيمان... وكان علي بن أبي طالب عليه السلام من أولئك الذين لا تهمهم شهوات وملذات الحياة الدنيا وهم يجاهدون في سبيل الله ومحق الشرك والكفر... فثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكثر بني هاشم . (فقد اتفق المؤرخون أن علي ابن أبي طالب و أكثر بني هاشم ثبتوا مع رسول لله في تلك الملازمة)[47]
وصار رسول لله صلى الله عليه وآله وسلم يدخل وطيس المعركة وهو يقول :

أنا النبي لا كـذب   أنا ابـن عبد المطلب

(وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب كانا بين يدي رسول الله يدافعان عنه)[48]
وقال الله تعالى : (ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذّب الّذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)[49]
(ونادى العباس بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا معشر الأنصار ، يا أهل بيعة الرضوان . فاجتمع حوله مائة نفر، وانقلبت الهزيمة إلى نصر من الله تعالى، فقد أراد تعالى أن يعطي درسا قاسيا أن النصر لن يتأتى أبداً بكثرة العدد)[50]
واستمرت عمليات الدعوة الإسلامية ودولتها في شبه الجزيرة العربية دولة الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان للإمام علي عليه السلام دور متزايد وصل لحد خلافة رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في المدينة حين غزوة تبوك.
(وفي السنة التاسعة من الهجرة في شهر ربيع الثاني وجه رسول الله صلى الله عليه واله وسلم عليا رضي الله عنه في سرية إلى الفلس _ صنم طيء _ ليهدمه في مائة وخمسين رجلا من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ولواء أبيض... فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفلس، وخربوه .

---

[47] هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمّة ألاثني عشر , ص 234.
[48] د . نزيه شحادة , من التاريخ الإسلاميّ , ص 119 .
[49] سورة التوبة , الآية : 26.
[50] د . نزيه شحادة , من التاريخ الإسلاميّ , ص 119.

وفي السنة التاسعة من الهجرة أمر رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أبا بكر(..) أن يحج بالناس، فخرج من المدينة في ثلاثمائة، وبعث رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في إثره عليا، فأدركه بالعرج _ بين مكة والمدينة _ على جادة الحاج،
وأذن علي رضي الله عنه ببراءة، وقال : لا يقربن المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوفن بالبيت عار، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فله عهده إلى مدته، وأن هذه أيام أكل وشرب، و أن لا يدخل الجنة إلا من كان مسلما)[51]

بينما جاء في سيرة الأئمة ألاثني عشر: (أن الوحي نزل على النبي، وأمره بان يرسل مكان أبي بكر علياً، وقال له : لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك . وأمر النبي علياً بأن يأخذ الآيات من أبي بكر، ويبلغها بنفسه)[52]

(وفي السنة العاشرة من الهجرة وجه رسول الله صلى الله عليه واله وسلم علي بن أبي طالب في سرية إلى اليمن في رمضان إذ فشل خالد بن الوليد في دعوة أهلها إلى الإسلام . وقرأ الإمام علي عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، فأسلمت همذان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، فلما قرأ كتابه خر ساجدا)[53]

ووصلنا إلى الاستنتاج بعد هذه الإطلالة الموجزة على تاريخ معارك الدعوة الإسلامية التأسيسية وموقف الإمام علي عليه السلام أن دولة الإسلام تكاد أن ترجع في قيامها وانتصارها من جهة الأسباب إلى إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام وجهاده... ومصداق ذلك في كتاب الله قوله عزّ من قائل : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين)[54] (أخرج أبو نعيم الحافظ (الأصبهاني) عن أبي صالح عن ابن عباس وعن أبي هريرة و جعفر الصادق رضي الله عنهم أنهم قالوا : أنها نزلت في علي لأنهم قالوا : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال رأيت مكتوباً على العرش لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي، ونصرته بعلي)[55] . فقد (قضى زهرة شبابه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم ونشر لواء الإسلام وتثبيت دعائمه غير هياب ولا وجل... وكلما راجعنا غزوات رسول الله وجدنا اسم علي مقرونا بها؛ فتارة نجده يحمل اللواء، وتارة يفرّق جموع الأعداء، ويلم شمل المجاهدين، ويبارز أبطال قريش أعداء الإسلام، فيصرعهم،

---

[51] محمد رضى , الإمام علي بن أبى طالب , رابع الخلفاء الراشدين , ص29.
[52] هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمّة الاثني عشر , ص 243 , ج1.
[53] محمد رضى , الإمام علي رابع الخلفاء الراشدين , ص 28 باختصار وتصرف بسيط .
55[54] سورة الأنفال , الآية : 62.
56[55] سليمان بن الشيخ إبراهيم الحسيني البلخي القندوزي الحنفي , كتاب ينابيع المودة , ص 18.

ويفتح الحصون المستعصية، ويهدم الأصنام، وهو صاحب الفضل في دخول همذان في الإسلام؛ وهي قبيلة كبيرة في اليمن، حتى سجد رسول الله شكرا لله تعالى على إسلامها، وأصابته رضي الله عنه يوم أحد ست عشرة ضربة)[56]

وبعد :

فان موقف الإمام علي عليه السلام من الحياة الدنيا في مرحلة معارك انتصار الدعوة الإسلامية موقف عملي مسلكي كون المرحلة كانت عملاً وجهاداً.. ولا ينفع فيها الإيمان باللسان وحده .

فكان ذلك الموقف الّذي لا يغتر بالحياة الدنيا، ولا يخضع لهوى النفس وهو في عنفوان الشباب والمقدرة على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها وملذاتها وفي أوقات ومواطن كانت مصداقية الدعوة الإسلامية وجدواها على محك الواقع وظروف الصراع غير الموازن مع قوى الشرك والكفر ما يكفي ليتخاذل أي متبع للدعوة إذا لم تتأصل الدعوة في نفسه، ولم يكن على إيمان راسخ ويقين تام والوقائع أثبتت ذلك .

وإنّه لمن اللافت للنظر والداعي للتأمل أن نلاحظ نمو الدعوة الإسلامية واستوائها منتصرة مع نمو الإمام علي عليه السلام البشري، وما رافقه من إشباع ونمو إيماني لا مثيل له من بين المسلمين الآخرين مع ممارسة وجهاد لا مثيل لهما أيضا .

انتصر الإسلام! والإمام علي عليه السلام خرج من مرحلة حياة عارك فيها صنوف الامتحانات الصعبة جدّا في الحياة، فصقلت نفسه، ومتنت شخصه، و أوعبته خبرة ورأيا لا تسنح لأحد دائما .

وكانت تلك الحكمة والشخصية الصلبة لها الأثر الحاسم في تقرير مصير الدولة الإسلامية والدين الإسلامي المحمدي؛ وقد ولاه رسول الله صلى الله عليه واله وسلم على المؤمنين بأمر الله تبارك تعالى بعد كل تلك التجارب الناجحة والممارسات المؤصلة بالإيمان الكامل القوي، ووصلت لدرجة المحبة بين الله تعالى و رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم وسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام، فوجب أن يكون ولي الله على المؤمنين كافة.

وذلك كان بعد حجة الوداع في موقع غدير خمّ _ بين مكة والمدينة _ حيث وقف رسول الله صلى الله عليه واله وسلم ليعلن أن : (من كنت مولاه فعلي مولاه.. اللهم والي من والاه، وعادي من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله)

[56] المصدر نفسه , ص 31.

وتعددت الروايات في متن الحديث إلا أنّ (حديث الغدير مما كاد ينعقد إجماع الأمة الإسلامية _ سنّة وشيعة _ على صحته، فقد حدث الحجاج به ومناشدته بين الصحابة والتابعين وممن أحتجّ به فاطمة بنت رسول الله والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعمر بن عبد العزيز والخليفة العباسي المأمون . والترمذي يقول في صحيحه : إن هذا حديث حسن صحيح . و الحافظ ابن عبد البر القرطبيّ يقول بعد ذكر حديث المؤاخاة : وحديثي الراية والغدير : هذه كلّها آثار ثابتة .)[57]

* الإمام علي وما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

قال الله تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون) [58]

و (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا)[59]

كانت وفاة رسول الله واقعة خطيرة إذ أنها خلّفت فراغا قياديا عظيما بين المسلمين لدولة هي الأولى التي تقوم في شبه الجزيرة العربية بهذا الاتساع وهذا النفوذ وهذا التحول والتقلب في عادات وعقائد أهلها من الناحية الرسمية عند أضعف الإيمان، بل أكثر من ذلك ؛ فإنّ وضع الدولة الإسلامية الناشئة غير مريح تماماً؛ فالروم في الشام لن يسكتوا، وقد استعدوا لحرب هذه الدولة والقضاء عليها، وفي الداخل ظهرت أخطار بعض القبائل المرتدة والمتنبئين الذين يتزعمونها إضافة لوجود المنافقين واشتعال الرغبة في تولي القيادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين الأنصار والمهاجرة . ولاشك أن الحكم له شهوة؛ فالحاكم يحس بشهوة ولذة الحكم إذ يخضع العباد له، ويمتلك القرار... وإذا كان كرسي الحكم ثابتاً يجلس عليه دون عناء تثبيته وتأسيس دولته خاصة.

وهذا مظهر من أعظم و ألذ مظاهر الحياة الدنيا. فماذا كان موقف الإمام علي عليه السلام من هذا الأمر ؟

(وقد فارق الحياة صلى الله عليه وآله وسلم، والتحق بالرفيق الأعلى، وكان رأسه الشريف على صدر علي بن أبي طالب عليه السلام ويده في يده، ومسح بها وجهه)[60]

---

[57] - محمد عبد الغني حسن ،مقال نشر في كتاب الغدير في الكتاب والسنة والأدب الجزء الأول في مطلع الجزء.

[58] سورة الزمر , آية : 30.

[59] سورة آل عمران , آية : 144.

[60] انظر كتاب نهج البلاغة من خطبة له عليه السلام رقمها 188 ص 231 بتحقيق مؤسسة نهج البلاغة إصدار المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق .

و أنشغل الإمام عليّ عليه السلام بغسله و بدفنه مع بني هاشم، و لم يسعَ لأخذ البيعة لنفسه بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه و آله وسلم مباشرةً؛ و لهذا الموقف احتمال :

أنه قد ضمن بيعة المسلمين التي كانت في غدير خم، فلا حاجة لتأكيدها إلا بعد دفن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و سكينة الحزن عليه بين الناس، و تؤيده رواية أوردها ابن أبي الحديد في كتاب شرح نهج البلاغة ؛ بأن الإمام علي رد على قول عمه العباس بمبايعته : (لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم شغل، و هذا الأمر.. فليس نخشى عليه)[61]

أما الواقع فإنّ المسلمين اختلفوا فيما بينهم...وسعوا لتنصيب خليفة تاركين جنازة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ينشغل بغسلها ودفنها أهل بيته... إلى أن اتفق من اجتمع في سقيفة بني ساعدة على أبي بكر، و عرض الأمر للناس للمبايعة، و بقي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لا يبايع و بنو هاشم و نفر من المسلمين ... و الروايات التاريخية كثيرة جدّا حول هذه الوقائع و متناقضة فلمن يريد الاستزادة مراجعة كتب التاريخ القديمة و المحدثة و عند كل الفرق، ويتجرد من التعصّب، ويطلب من الله تبارك وتعالى الهداية .

و لنا أن نستتشف موقف الإمام علي عليه السلام من الحياة الدنيا وذلك تجلى مع عمه العباس و أبي سفيان ؛ (فلما أجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان و هو يقول : والله إن لأرى عجاجه لا يطفئها إلا دم . يا آل عبد مناف أين أبو بكر من أموركم! أين المستضعفان! أين الأذلان علي و العباس! و قال :

أبا حسن أبسط يدك حتى أبايعك.. فأبى عليه، فجعل يتمثل بشعر المتلمس :

و لـن يقيم على خسف يراد به — إلا الأذلان عير الحي و الوتد

هذا على الخسف معكوس برمته — وذا يشج فلا يبكي لـه أحـد

فوكزه علي، و قال : إنك و الله ما أردت بهذا إلا الفتنة، و إنك و الله طال ما بغيت الإسلام شراً ؛ لا حاجة لنا في نصيحتك)[62].

[61] ابن أبي الحديد , شرح نهج البلاغة , المجلد الأول ص 309.

[62] محمد رضى , الإمام عليّ بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين , ص 36 .

الموقف ذا يكفي بياناً عن زهده في شهوة الحكم و الصراع عليه... فهو الذي مارس الجهاد، و خبر الأحداث، و علم الإسلام، و فقه القرآن الكريم ؛ لن ينجر وراء عمل يضر الإسلام و دولته وهو قادر على النهوض، لكن غير قادر إلى الحسم.. فهذا يكشف عن تدبيره و حكمته.. وسطعت حكمته في قوله عليه السلام :

(أيّها الناس شقوا أموج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، و ضعوا تيجان المفاخرة . أفلح من نهض بجناح، أو أستسلم، فأراح.. هذا ماء آجن، و لقمة يغص بها آكلها، أو مجتني الثمرة لغير وقت إيناعها؛ كالزارع بغير أرضه؛ فأن أقل.. يقولون : حرص على الملك، و إن أسكت يقولوا : جزع من الموت . هيهات بعد اللتيّا و التي و الله لا بن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشيه في الطويّ البعيدة) [63]

حقاً لم تكن المرحلة الماضية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المرحلة التأسيسية للدولة الإسلامية و دين الإسلام الصحيح الناسخ لما سبق من الأديان مرحلة جهاد فحسب، بل مرحلة تحصيل علمي أيضاً؛ تحصيل حي دائم من لدن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مستوعب للظروف و المناسبات و الأحوال التي نزلت بها الآيات القرآنية، وتحصيل ثاقب لغامض ومتشابه الآيات القرآنية ؛ حتى يستطيع الإمام علي عليه السلام أن يصرح بهذا التصريح السالف الذكر الجميل جمالاً أخاذاً شكلاً و مضمونا.

أما و إن الخلافة قد ذهبت عنه، أو خطفت منه، و مهما يكن، فإنه آثر الصبر و استمرار العمل و الجهاد في سبيل الله و قد آمن، و ضحى كل التضحيات السابقة لإعزاز الدين؛ فإن الخطر حلّ بساحة دولة الإسلام، و الأعداء استنفروا لمحقه.. وفي كتابه عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها إضاءة كافية.. إذ قال عليه السلام :

(أما بعد : فإنّ الله سبحانه بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين ومهيمناً على المرسلين . فلما مضى عليه السلام تنازع المسلمون الأمر من بعده . فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله وسلّم عن آهل بيته، ولا أنهم منحّوه عنّي من بعده ! فما راعني إلا انثيال الناس (أي انصبابهم) على فلان يبايعونه؛ فأمسكت يدي (أي لم يبايع وترك الناس وشأنهم) حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام ؛ يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما، أو

---

[63] ابن أبي الحديد , شرح نهج البلاغة , المجلد الأول ص 178. الأرشية حبال البئر , والطويّ البعيدة : البئر العميقة .

هدما تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل، وزهق، واطمأنّ الدين، وتنهنه ..)[64]

وفي رواية يرويها كتاب أنساب الأشراف إضاءة أخرى تؤكد هذا الموقف تتضمن : أن عثمان مشى إلى علي، فقال : (يا ابن عم إنه لا يخرج أحد إلى قتال هذا العدو و أنت لم تبايع.. فلم يزل به حتى مشى إلى أبي بكر، فبايعه.. فسر المسلمون، و جد الناس في القتال، و قطعت البعوث)[65]

و هكذا فأن دولة الإسلام مرة أخرى تنجوا، و تتوسع، و تحقق انتصارات تلو الانتصارات؛ و كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام السبب الأهم في ذلك سواء في عدم إثارة نار الفتنة، أو في تدخلاته في القضاء... حتى قال عمر بن الخطاب (معضلة و أبو الحسن لها) [66]

و قال (لا يفتينّ أحد في المسجد و علي حاضر، و لولا علي لهلك عمر)[67]

و وصل الأمر إلى توجيهاته في القضايا المصيرية الأمنية مثلما أشار على عمر بن الخطاب بعدم الشخوص (السفر) بنفسه إلى قتال فارس و الروم [68] .

لكن الأحوال السلطوية لا تنبأ بالخير، وفي انتقالاتها خاصة التي كانت تقصي الإمام علي عليه السلام عنها و هو يؤثر الصبر و عدم الانجرار نحو الفتنة؛ إذ لا غاية له سوى رفعة الدين و إعزاز المسلمين حتى قال بعد تنصيب عثمان بن عفان خليفة :

(أيها الناس ؛ لقد علمتم أني أحق الناس بهذا الأمر من غيري أما و قد انتهى الأمر إلى ما ترون! فو الله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين! و لم يكن جور إلا عليّ خاصة التماساً لأجل ذلك و فضله و زهداً فيما تنافستموه من زخرفه)[69]

و لما أخذ الخلافة عثمان بن عفان كانت فرصةً لبني أمية باستعادة أمجادهم و تعويض ما خسروا إبان انتصار الدعوة الإسلامية التي ناصبوها العداء، حتى فتح الله مكة إذ ذاك أسلموا . فاستأثروا في زمن عثمان بالأموال و المراكز (يكضمون مال الله كضم الإبل نبتة الربيع)[70]

---

[64] 65 من كتاب له عليه السلام وارد في كتاب نهج البلاغة رقمه 62 صفحة 389 .

[65] مرتضى العسكري , معالم المدرستين عن أنساب الأشراف للبلاذري ص 172 المجلد الأول .

[66] الشريف الرضي , خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام , ص 56.

[67] أحمد حسن الباقوري , علي إمام الأئمة , ص 170.

[68] انظر كتاب نهج البلاغة , الكلام 134 و 146 . طبعة المستشارية الإيرانية بدمشق . وكل شاهد في هذا الكتاب من كتاب نهج البلاغة معتمد على هذه الطبعة تاريخها 1997م .

[69] هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمّة ألاثني عشر , ص 360 .

[70] المصدر السابق , ص 360

فكان مسلسل إقصاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن الخلافة قد أدى لنتائج وخيمة، و فتح باباً للفتنة بالرغم من ابتعاد الإمام علي عليه السلام عنها . لكن كان قدر الله تعالى قدراً مقدوراً و الحياة الدنيا لا قرار لها، بل هي فتنة ليبلو الله الناس، و قد قال الله تعالى في محكم تنزيله : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لا يفتنون)[71]

ولسنا نبحث هنا عن أسباب الفتنة و تفصيلاتها، و لكن من المفيد لبحثنا أن نشير، و ننبّه بأن الدافع الأساس للفتنة هو الصراع على مظاهر الحياة الدنيا من مال و جاه...الخ حتى قال الشاعر المعاصر لتلك الأحداث أو ما بعد تلك الأحداث :

فأن قريشاً مهلك من أطاعها تنافس دنياً قد أحم انصرامها [72]

و خلف الصراع الفساد و الظلم و انقسام المسلمين و انقلاب قسم منهم على الخليفة عثمان بن عفان، واضطربت الأحوال بمقتله، و هرع الكثيرون إلى الإمام علي عليه السلام لينقذ الموقف، و يملأ الفراغ في الخلافة؛ (كعرف الضبع ينثالون عليه من كل جانب مجتمعين حوله كربيضة الغنم)[73]

*الإمام علي عليه السلام حاكماً :

(فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، و مرقت أخرى، و فسق آخرون كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه و تعالى يقول : (تلكم الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا و العاقبة للمتقين)! بلى و الله سمعوها، و وعوها، و لكنهم حلية الدنيا في أعينهم، و راقهم زبرجها)[74]

شقشقت هذه الكلمات نفس الإمام علي عليه السلام مختصرة الكلام عن أسباب و تفاصيل و دوافع الفتنة إبان حكمه، و صرّح فيها بإيمانه و عقيدته بأن الحياة ليست في الدنيا فحسب، و أن لها كرة أخرى خالدة هي الحياة الآخرة تلك التي فيها النصر و الظفر و النجاح الحق و الخالد لمن لم يتخبط مفسداً أو متعالياً في الحياة الدنيا .

وما يدفع إلى الفساد والتعالي كما بيّن الإمام علي عليه السلام حلاوة الدنيا في الأعين .

---

[71] سورة العنكبوت الآية : 2

[72] محمد محمد حسين , الهجاء و الهجاءون في صدر الإسلام , ص 115

[73] من الخطبة الثالثة , الواردة في كتاب نهج البلاغة ص 16

[74] من خطبة له (ع) رقمها : 3 في كتاب نهج البلاغة , ص 15 .
نكثت طائفة : يقصد أصحاب الجمل , و مرقت أخرى : يقصد الخوارج , و فسق آخرون : يقصد معاوية و من معه .

هذا هو الدافع الحقيقي للفتنة، و عكس ذلك هو الدافع الحقيقي للإمام علي في مواجهة الفتنة و عدم رضوخه للمراوغات و المساومات و الآراء التي تطلب منه الغض و قبول أنصاف الحلول و السير في ركاب المفتونين؛ فليس الحكم عنده غاية يحقق فيها لذة أو شهوة، وإنّما هي وسيلة لتحقيق العدل و محق الظلم، و أنه وجب القيام حال التمكن و وجود الناصر، فقد أقسم قائلاً :

(أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله تعالى على العلماء أن لايقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم.. لألفيت حبلها على غاربها، ولسقيت أخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز)[75]

كلمات تتراءى فيها أوجه المشكلة الكبيرة التي تعاني منها الدولة الإسلامية و الرعية.. الدولة التي تستمد شرعيتها من حكم الله تعالى! و قد أمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى، و نهى عن الفحشاء و المنكر و البغي .

حقاً هناك بون كبير بين تحقق شعار الدولة و بين وقائعها! و الإمام علي عليه السلام ذلك المجاهد الأكبر و المؤمن الكامل يعز عليه، بل لا يستطيع أن يعتزل، و حال الدولة التي جاهد جهاداً عظيماً لتثبيتها لأنها تحمل شعار الحق و العدالة من الله حالها على ما هو عليه من الفتنة والاضطراب..

فإيمانه وإخلاصه يفرضان عليه تحمل المسؤولية رغماً عن كل الانحرافات و التجاوزات التي حلت في وقائع هذه الدولة! أجل كلمات مثل (حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر) دلالة على ما كان يفقده الإمام علي عليه السلام من قبل وهو يشاهد الانحرافات هنا و هناك! و كلمات مثل (كظة ظالم و سغب مظلوم) دلالة على مدى الانحراف الخطير الذي حل بدولة وجب عليها أن تخلص لشعارها و شرعيتها!

و قوله : (و لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز) كشفت ضدين يتعاركان أو دافعين لهذا التعارك.. الأول التهالك أو الرغبة في تحصيل ملذات الحياة الدنيا بأي ثمن! و الثانية الزهد بملذات الحياة الدنيا إذا كانت على حساب الآخرين ظلماً و عدواناً!

لذا استلم الإمام علي الحكم و ليس يبتغي النصر و الظفر في دنياه على حساب دينه و إيمانه و رضى الله تعالى فقال :

---

[75] 76 نفس المصدر والخطبة

(و لقد ضربت أنف هذا الأمر و عينه و قلبت ظهره و بطنه؛ فلم أر لي إلا القتال، أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه و آله)[76]

فلا طريق ثالث! وما قد حصل من الفتنة الضروس و الظلم والانحراف في دولة الإسلام فلا بد من الحسم! و الغدر و الفجور إنما هي وسيلة المفتونين لا سبيل المؤمنين الذين لا يبغون إلا ما حكم الله تعالى فيه و رد الحقوق و الأخذ على أيدي الظالمين! و إلا فكيف يعرف الحق من الباطل إذا سار أصحاب الحق على نهج أصحاب الباطل! أم أن الغدر و الفجور يجب أن يكونا نهج المؤمنين والحال على ما هي عليه من الانحراف و لا تتحمل المزيد!

وكما قال الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام : (والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى النّاس! ولكن كلّ غدرة فجرة، وكلّ فجرة كفرة، ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة . والله ما أُستغفل بالمكيدة، ولا أُستغمز بالشديدة .)[77]

كما قيل عن الإمام علي (عليه السلام) أنه رجل شجاع، و لكن لا علم له بالحرب . فرد الإمام مذكراً بتاريخه الحافل بالتجارب و اجتياز أصعب الظروف الجهادية

فقال :

(لله أبوهم . و هل أحد منهم أشد لها مراساً و أقدم فيها مقاماً مني! لقد نهضت فيها ما بلغت العشرين، و ها أنا ذا قد ذرفت على الستين، و لكن لا رأي لمن لا يطاع)[78]

أجل.. فقد قرع أصحابه بتثاقلهم عن جهاد أهل الباطل؛ فأدى ذلك إلى ضعف أهل الحق و استحالتهم غنيمةً سهلة للأعداء، و أدى إلى إبقاء مكانة أهل الباطل، وما يريدونه من أهداف... فقال الإمام علي عليه السلام :

(ألا و أني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً و نهار، و قلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم . فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا . فتواكلتم، و تخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، و ملكت عليكم الأوطان.. فيا عجباً عجباً - و الله - يميت القلب، و يجلب الهم من اجتماع هؤلاء على باطلهم، و تفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم و ترحاً حين صرتم غرضاً يرمى يغار عليكم، و لا تغيرون، و تُغزون، و لا تَغزون، و يعصى الله، و ترضون!

---

[76] من كلام له (ع) رقمها : 43 في كتاب نهج البلاغة ص 50.

[77]78 نفس المصدر من كلام له عليه السلام رقم 191 ص 237 أُستغمز مبني للمجهول أي لا أُستضعف بالقوة الشديدة . والمعنى لا يستضعفني شديد القوة . والغَمَز – محركة- : الرجل الضعيف . من شرح الدكتور صبحي الصالح .

[78] من خطبة له (ع) رقمها : 27 في النهج , ص 34 .

يا أشباه الرجال، و لا رجال حلوم الأطفال، و عقول ربات الحجال، لو ودت أني لم أركم، و لم أعرفكم معرفة - و الله - جرّت ندماً، و أعقبت سدماً . قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحاً، و شحنتم صدري غيظاً، و جرعتموني نغب التهمام أنفاساً، و أفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان)[79]

و كشف الإمام بتذمر دوافع الخذلان، و التثاقل عن الجهاد من قبل أصحابه؛ فإذا هي نفس دافع أهل الباطل فقال :

(أف لكم لقد سئمت عتابكم أرضيتم بالدنيا من الآخرة عوضاً و بالذل من العز خلفاً..)[80]

كذلك هي دوافع أهل الباطل الرضى بهذه الحياة الدنيا و السعي لأجلها و لا عمل و لا هم للحياة الآخرة.. أو لا مراعاة لما أمر الله تعالى، فلا خشية من لقائه .

وبقي الإمام علي عليه السلام لا يحيد عن موقفه، يدخل المعركة تلو المعركة، ولا يقبل المساومات إلا ما اضطر إليه من أمر التحكيم إذ استطاع معسكر الباطل أن يختل بها أصحاب الإمام الحق أو المحسوبين عليه، ويبث فيهم الخلاف في وقت كان النصر أقرب إلى معسكر الإمام .

أمّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فتوجه إلى الله تعالى في كلام له خاطب به أصحابه يذمهم، ويقرعهم على تخاذلهم، ولعله يتذكر قولا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (يا علي كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة، و رغبوا في الدنيا، وأكلوا التراث أكلا لمّا، وأحبوا المال حبا جما، واتخذوا دين الله دغلا ومال الله دولا .

قال : أتركهم حتى ألحق بك إن شاء الله تعالى . قال : صدقت . اللهم أفعل ذلك به..)[81]

فانطبق كلامه على ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال بعد تقريعه لأصحابه، و متجها إلى الله تعالى بارئا ذمته وكأنه يريد أن يسمع من في قلوبهم بصيص من نور الحق، فيثبتوا عليه : (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك اللهم إني أول من أناب، وسمع، وأجاب لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه واله بالصلاة)[82]

---

[79] الخطبة السابقة , نغب : جمع نغبه أي جرعة , التهمام : الهم , أنفاساً : أي جرعة بعد جرعة .

[80] من خطبة له (ع) رقمها : 34 ص 43 إصدار المستشارية الإيرانية بدمشق

[81] محمد رضى , الإمام عليّ رابع الخلفاء الراشدين , ص 14.

[82] من كلام له (ع) رقمه 131 , في كتاب النهج , ص 151.

* زهد الإمام علي عليه السلام:

وهناك صور أخرى من موقف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام العملية تجاه الحياة الدنيا مهمّ أن نقف عندها، ونتأملها، ونعلق عليها كاشفين جوانب أخرى لشخصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الفذّة والكاملة ..

فكان الإمام كما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين عامة في ضيق من العيش أثناء الدعوة الإسلامية، فلم يحصّلوا أموالا، ولم يرغدوا عيشا، بل كانت زوجة علي فاطمة بنت محمد صلى الله عليه واله وسلم وعليها السلام تطحن ، وتخبز بيديها؛ فما كانوا يدعون إلى الإسلام ويجاهدون... طمعا في مظاهر دنيوية من مال وجاه وعزّ، بل إيمانا واحتسابا لله تعالى، فلم يفرّوا من الفقر وقد وجدوا فقرا أشد، و إذ (دخل علي رضي الله عنه على فاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) يبكيان فقال : ما يبكيكما ؟ قالت : الجوع . فخرج علي (عليه السلام) فوجد دينارا في السوق فجاء فاطمة (عليها السلام) فأخبرها . فقالت : أذهب إلى خلال اليهودي، فاشترى به دقيقا . فقال اليهودي : أنت ختن هذا الّذي يزعم أنه رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فخذ دينارك، ولك الدقيق . فخرج عليّ (عليه السلام) حتى جاء فاطمة (عليها السلام) فأخبرها . فقالت : أذهب إلى فلان الجزار، فخذ لنا به لحما فذهب ، فرهن الدينار بدرهم على لحم ، فجاء به ، فعجنت ، ونصبت ، وخبزت ، وأرسلت إلى أبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) فجاءهم . فقالت : يا رسول الله أذكر لك، فإن رأيته حلالا أكلنا وأكلت من شأنه كذا و كذا فقال : كلوا بسم الله.. فأكلوا فبينا هم مكانهم إذ غلام ينشد الله والإسلام الدينار.. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا علي اذهب إلى الجزار فقل له : إن رسول الله يقول لك : أرسل إليّ بالدينار، ودرهمك عليّ، فأرسل به ، فدفع إليه)[83]

إذن الإمام علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وابنته وسبطاه عليهم السلام يحتارون في طعام بدرهم، ويتناقشون في دينار، ويستدينونه . فانظر إلى كل ذلك الجهاد في الدعوة لم يغنهم من فقر إذ أنهم مخلصون لله تعالى وحده . بينما تجد الكثير ممن حمل لواء الإصلاح ، وحتى الثورة على الطغاة ومصاصي أموال (الشعب) ، فإذا تمكنوا صاروا من زمرة هؤلاء المصاصين

[83] محمد رضى , الإمام عليّ رابع الخلفاء الراشدين , ص 15.

أجل بهذا وبغيره من الفضائل العظمى حقّ أن يكون مبلغ الدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته أطهر وأفضل وأحب الخلق إلى الله تعالى؛ لكن العظمة والطهر والفضيلة الكبرى عند الإمام علي عليه السلام تبقى حتى عند استلامه الحكم وتحكمه في بيت مال المسلمين في دولة عظمى تجبى لها الأموال الكثيرة .

(فهل عرف تاريخ البشرية حاكما يطحن الشعير، و يأكل منه خبزاً يابساً يستعين على كسره بركبتيه و يرفع خفه بيديه و لا يكنز من الدنيا قليلاً و لا كثيراً مادام على وجه الأرض بطون غرثى و أكباد حرى

و ظل إلى أن فارق هذه الدنيا يقول (أ أقنع من نفسي أن يقال لها أمير المؤمنين و لا أشاركهم في مكاره الدهر و خشونة العيش) و كان أقل ما في هذه الدنيا شأناً خير عنده من الخلافة إذا لم يحق حقاً و يبطل باطلاً)[84]

و بالمقارنة مع غيره من الحكام ماضياً و حاضراً نجد مدى عظمة إخلاص الإمام علي في موقفه المستند إلى الإيمان بالله تعالى، فلا يهمه أي مظهر دنيوي و لذة هي أقرب ما تكون إليه و هو الحاكم ، بل هو على حاله هذه ما يتلذذ به المتعلقون بالحياة الدنيا تكون غصة و نقمة عليه ؛ فهو في نعيم خاص بالأولياء المتعلقين بالله تعالى، بل هو ولي الله تعالى بلا نظير .

لذا كان شديداً بالنسبة لغيره ممن هو متعلق بمظاهر دنيوية كبعض عماله؛ فمن كتاب له علي السلام إلى بعض عماله :

(أما بعد فقد بلغني عنك أمراً إن كنت فعلته فقد سخطت ربك، و عصيت إمامك، و أخزيت أمانتك ؛ بلغني أنك جردت الأرض، فأخذت ما تحت قدميك، و أكلت ما تحت يديك . فارفع إليّ حسابك، و أعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس، و السلام)[85]

و حتى المقربين و أقرب المقربين إلى الإمام لا يسلمون من محاسبته و أمره برد الحقوق و الارتداد عن الباطل و طريقه لحد التهديد بالقتل و الاقتصاص الشديد فمن ذلك كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله والظاهر هو ابن عمه :

[84] هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمة ألاثني عشر , ص 300.

[85] من كتاب له (ع) , رقمها : 40 , ص , 353 .

(أما بعد فأني كنت أشركتك في أمانتي، وجعلتك شعاري، وبطانتي، ولم يكن في أهلي رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي، وموازرتي، وأداء الأمانة إليّ، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، وأمانة الناس قد خزيت، وهذه الأمة قد فتنت . وشغرت .

قلبت لابن عمك ظهر المجن، ففارقته مع الفارقين، وخذلته مع الخاذلين، وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك آسيت، ولا الأمانة أديت، وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك، وكأنك لم تكن على بينة من ربك، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياها، وتنوي غرتهم عن فيئهم، فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لآرامهم، وأيتامهم اختطاف الذئب الأزلّ دامية المعزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر تحمله غير متأثم من أخذه كأنك _ لا أبا لغيرك _ حدرت إلى أهلك تراثك من أبيك وأمك .

فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد! أو ما تخاف من نقاش الحساب! أيها المعدود – كان - عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا، وطعاما أنت تعلم أنك تأكل حراما، وتشرب حراما ! وتبتاع الإماء، وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين المجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد.

فاتق الله، وأردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل، ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدا إلا دخل النار، والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ؛ ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا منّي بإرادة حتى أخذ الحق منهما، وأزيح الباطل عن مظلمتهما، وأقسم بالله ربّ العالمين :

ما يسرني أنّ ما أخذ من أموالهم حلال لي أتركه ميراثا لمن بعدي . فضحّ[86] رويداً، فكأنك قد بلغت المدى، ودفنت تحت الثرى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة، ويتمنى المضيّع فيه الرجعة، ولات حين مناص .)[87]

ظهر مما سبق ؛ الإيمان الحي، والإخلاص في العقيدة، والصدق في السلوك في موقف الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فاليوم الآخر دائما في ذهنه، وحساب الله تعالى دائما في جدول أعماله ؛ حتى يصير معيار الحكم، ويحدد بها السياسة .

[86] 87 ضحّ : من ضحيت الغنم إذا رعيتها في الضحى , أي فارعَ نفسك على مهل . من شرح صبحي الصالح .

[87] من كتاب له عليه السلام رقمه : 41 ص 354. (ولات حين مناص) أي ليس الوقت وقت فرار .. من نفس مصدر الشرح . وهي مأخوذة من الآية رقم3من سورة : ص .

ولنا في كتابه إلى عامله في البصرة ؛ الأنموذج الصالح لموقف الإمام علي (عليه السلام)، فظهر فيها مقاربا حد الإعجاز على البشر، فنبّه أنه لا يطالب السير في ركابه، وإنمّا محاولات للاقتراب منه ورعا و عفة.. و أنه لا يزهد عن ضعف وعدم تمكن من تحصيل ما يتلذذ به الناس عامة؛ وإنّما مراعاة ومشاركة لأفقر الناس مادام هو الحاكم .

و كشف فيها عن حقيقة صحية بأن قلة القوت لا تورث الضعف ؛ فالقوة في النفس حيث الشجاعة و الثبات على الموقف؛ و لو تظاهر عليه كل العرب ؛ مؤكداً أنه لن يحيد عن الحق الذي يسير فيه و أزاحه الباطل . فقال (عليه السلام) :

(أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، و تنقل عليك الجفان، و ما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو، و غنيهم مدعو . فانظر إلى ما تقضمه من هذا القضم، فما أشتبه عليك علمه فالفظه، و ما أيقنت بطيب وجهه فنل منه .

ألا و إن لكل مأموم إماماً يقتدى به، و يستضئ بنور علمه، ألا و إن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[88] و من طُعمه بقرصيه، ألا و إنّكم لا تقدرون على ذلك، و لكن أعينوني بروع و اجتهاد و عفة و سداد .

فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً، و لا ادخرت من غنائمها وفراً، و لا أعددت لبالي ثوبي طمراً، و لا حزت من أرضها شبراً، و لا أخذت منه إلا كقوت أتان دَبِرة[89] و لهى في عيني أوهى من عفصة مقرة[90] . بلى كانت في أيدينا فدك[91] من كل ما أظلته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم، و سخت عنها نفوس آخرين، و نعم الحكم الله . و ما أصنع بفدك و غير فدك! و النفس مظانها في غد جدث[92] تنقطع في ظلمته آثارها، و تغيب أخبارها، و حفرة لو يزيد في فسحتها، و أوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر و المدر و سد فرجها التراب المتراكم؛ و إنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتى أمنه يوم الخوف الأكبر، و تثبت على جوانب المزلق .

---

[88] 89 طمريه : تثنية طِمر . والطِمر بالكسر : الثوب الخلق البالي , وطعمه بضم الطاء : ما يطعمه ويفطر عليه , وقرصيه تثنية قرص , وهو الرغيف . شرح صبحي الصالح .

[89] 90 أتان دبَِرة : هي الدابة التي عقر ظهرها فقلّ أكلها . من نفس الشرح .

[90] 91 مقرة : أي مرة .

[91] 92 فدك اسم أرض كانت خالصة للنبيّ (ص) فأعطاها ابنته فاطمة (ع) فلمّا ولي أبو بكر منعها عنها وجعلها صدقة للنبيّ يأكل منها الناس , وواضح من كلام الإمام عليّ (ع) ذلك بقوله : شحّت عليها نفوس قوم .

[92] 93 مظانها : مكانها , جدث : قبر .

ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل و لُباب هذا القمح و نسائج هذا القز؛ و لكن هيهات أن يغلبني هواي، و يقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، و لعل بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص، و لا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً و حولي بطون غرثى و أكباد حرى، أو أكون كما قال القائل :

حسبكما داءً أن تبيت ببطنه و حولك أكباد تحن إلى القدّ

أأقنع من نفسي بأن يقال هذا أمير المؤمنين، و لا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقمُّمها تكترش من أعلافها، و تلهو عما يراد بها، أو أكثرت سدى، أو أهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة، و كأني بقائلكم يقول :

إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران و منازلة الشجعان ألا و إنّ الشجرة البرية أصلب عوداً، و الروائع الخضرة أرق جلوداً، و النباتات البدوية أقوى وقوداً و أبطأ خموداً، و أنا من رسول الله كالصنو من الصنو و الذراع من العضد .

و الله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها، و لو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها، و سأجهد في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس و الجسم المركوس حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد .)

و ينتقل الكتاب إلى ما أشبه بنثر أراه أصدق و أجمل و أشد تأثيراً و أقوى تنبيهاً و أكثر تملكاً بالمتلقي ؛ إذ يجعله يعيش في عالم نص فنيّ بلاغيّ لا يرقى إليه الكثير أو المعظم من نصوص الأدب، بل أعظم من ذلك ؛ إنّه يحمل مضموناً هو خلاصة تجربة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، و تأمله، و تفاعله الإيماني الكامل الخالص لله تعالى في الحياة الدنيا، فقال :

(إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك ؛ قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبائلك، و اجتنبت الذهاب في مداحظك .

أين القرون الذين غررتهم بمداعبك! أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك! هاهم رهائن القبور و مضامين اللحود.

و الله لو كنت شخصاً مرئياً، و قالباً حسياً لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتم بالأماني، و أمم ألقيتهم في المهاوي، و ملوك أسلمتهم إلى التلف، و أوردتهم موارد البلاء إذ لا ورد و لا صدر .

هيهات من وطئ دحضك زلق، و من ركب لججك غرق، و من أزورّ عن حبالك وفق، و السالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه، و الدنيا عنده كيوم حان انسلاخه .
أعزبي عني، فوالله لا أذل فتستذليني، و لا أسلس لك فتقوديني .
و أيم الله يميناً _ استثني فيها بمشيئة الله _ لأروضن نفسي رياضة؛ تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، و تقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغةً دموعها.
أتمتلئ السائمة من رعيها، فتبرك ! و تشبع الربيضة من عشبها فتربض ! و يأكل علي من زاده فيهجع ! قرت إذاً عينه ؛ إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة و السائمة المرعية!
طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، و عركت بجانبها بؤسها، و هجرت في الليل غمضها حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، و توسدت كفها في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، و تجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاهم، و تقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم؛ (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)
فاتق الله يا ابن حنيف، و لتكتف أقراصك، وليكن من النار خلاصك .)[93]
قصة الحياة تلك التي سطرها الإمام علي (عليه السلام)، وصور متتابعة في غاية الروعة و الجمال، و تجذب ذهن المتلقي، و تحفزه على التأمل مشدوداً مبهوراً بها .
فمن صورة الدنيا، و هي وحش مفترس إلى صورة شخص فتان ذو حبائل يقع بها
المفتونون، و من صورة شخص سفّاك أجهز على أمم و شعوب إلى صورة شخص متهم إمام القضاء يتلقى حده .
و إلى صورة امرأة تستذل، و تقود رجلها؛ كلّ هذه الصور خلاصة تأمل و تجربة الإمام علي (عليه السلام)، و معاناته من أهل الدنيا الخارجين عن الحق؛ و كان إبداعها إبداعاً فنياً توحدت فيه مشاعر الإمام وأحاسيسه مع موقفه المتأصل بالإيمان بالله تعالى من الحياة الدنيا؛ فكان من هذا التوحد و الاندماج أن انطلقت هذه الإبداعات البلاغية الفنية التصويرية ..
طاقة إبداعية فنية خلابة للأذهان جذابة للانتباه محفزة لتخيل الصور و التعايش معها، و هذا المثال المؤسس للأدب الإسلامي يبين اندماج العقيدة مع أحاسيس و مشاعر المسلم المؤمن التقي .
و هي تجربة معاشه من قبل الإمام (عليه السلام)، و ليست أماني و دعوات فاقدة لجدوى التطبيق البشري من داعيها، أو يعزب عن تطبيقها إنسان.

---

[93] من كتاب له عليه السلام رقمه : 45 , ص 357 إصدار المستشارية الإيرانية بدمشق

أنّها تجربة بشرية فذة ؛ قلما يجربها بشر دون أصول إيمانية صحيحة متمكنة في نفسه .
إنّها كلمات تجري جريان عذباً سلساً كجريان ماء الينبوع العذب من مجراه دون تعرجات وانحدارات و التواءات تجعله مضطرباً .
و ما زالت في هذا النص من طاقات إبداعية و مجالات واسعة لم أشر إليها.
و قد دخلنا عزيزي القارئ إلى عالم الإمام الخطابي و الفكري و نحن في سياق نهاية بحثنا عن موقف الإمام علي (عليه السلام) العملي و السلوكي و أثرها على الدعوة الإسلامية و دولتها فكانت سببا مهما في تحقيق الانتصارات، و تثبيت الدعوة الإسلامية ، إذ كان موقفاً ثابتاً متواتراً في الإخلاص لله تعالى و الصدق مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و الجهاد في ساحات القتال دون تخاذل و درء الفتنة و محاربة أهل الباطل و عدم المساومة على المبادئ الإسلامية والتحري ضد الفاسدين و محاسبتهم و عدم الانجرار إلى ملذات الحياة الدنيا عند قدومها إليه؛ وإنّما الثبات على نعيم الإيمان و التقوى و القناعة ..
ونستخلص مما سبق أنّ موقف الإمام علي (عليه السلام) من الحياة الدنيا لا يقتصر على الزهد والعبادة والقناعة؛ وإنّما إيمانه و زهده كان دافعاً له للعمل وعدم الاعتزال ومواجهة الفتنة والدفاع عن المظلومين مادام وجد الناصر، وسعى بكل جهده لينصر الحق؛ فكان الحق معه، وهو مع الحق يدور الحق معه حيث دار على حد تعبير الحديث النبوي الشريف .

الفصل الثاني :

الحياة الدنيا في خطاب الإمام علي عليه السلام

_ تمهيد :

_ الحياة الدنيا في خطب الإمام علي

- فناء الحياة الدنيا .
- الإنسان في الحياة الدنيا .
- زاد الحياة الدنيا أو العمل .

كانت خطب الإمام علي عليه السلام قد كثرت من عند استلامه الخلافة؛ و هذا معهود لكل حاكم يستلم الحكم أن تكثر خطبه؛ فهو فيها يبين سياسته و أحكامه و وصاياه تجاه ما يشغل الحكم و الرعية

و عصر الإمام و حال الدولة في عهده فرض أن تكثر الخطب و البيانات في وجه الأعداء الذين خرجوا أو تمردوا عليه و هو الحاكم الشرعي .

و الملاحظ في خطب الإمام علي (عليه السلام) أن قضية الحياة الدنيا ظاهرة قد تكررت في ثنايا خطبه، وثمة خطبة كاملة في هذه القضية، و لا بد أن ما تم بحثه سابقاً من موقفه العملي من هذه القضية وعند استلامه الخلافة خاصة نجد أنه صدم بمن حوله و بالناس عامة و هم يتكالبون، و تختلف أعناقهم في طلب مظاهر الحياة الدنيا من مال و جاه و سلطة؛ فإنه يكشف أيضاً عن دافع هذه الظاهرة المكررة في خطبه .

فهو يريد أن يعظ ، و يدعو الناس إلى التنبه و التحرر من التعلق بالحياة الدنيا التعلق المستسلم لمظاهرها و المتصارع عليها مع الآخرين هذا الذي وقع فيه أصحابه جلّهم و أعداؤه على حد سواء، ولقي من أصحابه جراء ذلك أكثر و أشد مما لقي من أعدائه[94] .

الحياة الدنيا في خطب الإمام علي عليه السلام :

كان تحذير الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام من التعلق القلبي بالحياة الدنيا والحرص عليها، ولو على حساب الحق والدفاع عنه بأن نثر في خطبه عن الدنيا صورا فكرية تمتزج أحيانا كثيرة بالإبداع الفني، فأراد أن يخاطب العقول والنفوس، ويشدّ الانتباه إليها، ويعمق أثرها في المتلقين على سنة الخطابة .

وسنبحث في الخطب التي صورت الحياة الدنيا وحال الإنسان فيها والعمل وما ينفع منه ؟ ولأيّ غاية ؟ حتى نستطيع تكوين صورة قريبة[95] بما فيه الكفاية لموقف الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من هذه القضية إن شاء الله .

أولاً فناء الحياة الدنيا :

95[94] انظر مبحث موقفه ما بعد وفاة رسول الله (ص) صفحة : 40.

97[95] لعلّ من المناسب أن أعترف بأنّ طريقة دراسة الخطب وعرض مضمونها تأثّر بما درسته في الجامعة من كتاب النابغة الذبياني دراسة في تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور محمد زكي العشماوي .

فناء الحياة الدنيا في أصول الإسلام، وعليه بنى الإمام علي (عليه السلام) خطبة له يدعو فيها إلى عدم الاشتغال بالنفس والعمل لغاية هذه الحياة إنقاذاً من النار وسعيا إلى الجنّة.

فهو يرى الحياة الدنيا- وسماها في مطلع الخطبة بالدهر- أنها تجري بمن فيها وبلا توقف ولا تغيّر في جريانها ؛ أي أنها حادثة لا يعود ما فات فيها، ولا يبقى فيها أيّ مخلوق على حاله؛ فكلّ مخلوق يتعرض للتغير والتبدل في جسمه ومجمل حياته..

والحق أنّ ما ظهر لنا اليوم من معلومات بأن أصغر جزيء مكتشف في الكون إلى أكبره متحرك جارٍ وفق مسار محدد من قبل الخالق جل جلاله، وأن على هذه الحركة تتم المتبدلات والمتغيرات لما في الكون؛ والإمام علي (عليه السلام) يرى أن هذه التغيرات ؛ هي في الماضي كما في الحاضر وفي المستقبل؛ فكما يتغير المناخ مثلاً من صيف إلى خريف إلى شتاء إلى ربيع على مدار العام بلا تغير في هذه السنّة؛ فلا يتقدم الخريف على الصيف مثلاً ؛ فكذلك باقي سنن الحياة ووقائعها، وشبّه الإمام علي (عليه السلام) هذه الوقائع بالمتسابقين في حدوثها وتتابعها على المخلوقات وعلاماتها ظاهرة فيهم؛ فمن صغر إلى كبر إلى هرم .

قال الإمام علي[96] (عليه السلام) :

(الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحا لذكره وسببا للمزيد من فضله ودليلا على آلائه وعظمته عباد الله إنّ الدّهر يجري بالباقين كجريه بالماضين ؛ لا يعود ما قد ولّى منه، ولا يبقى سرمدا ما فيه ؛ آخر فعاله كأوله متسابقة أموره متظاهرة أعلامه ..)

وينتقل الإمام عليّ (عليه السلام) بعد هذا البيان للحياة الدنيا وحالها إلى ذكر الساعة أيّ يوم القيامة، و كـأنّه ينبه إلى أنّ لهذا الجريان الدنيويّ نهاية حتمية لا يستطيع أحد من المخلوقات من الهروب منها إذ شبّه الساعة بالسائق الذي يسوق دابته رغماً عن إرادتها بالزجر؛ فالساعة كذلك تسوقنا إلى النهاية الحتمية حيث الوقوف لتلقي حساب الله تعالى على أعمالنا السالفة في الدنيا، ولا مهرب لنا من ذلك . قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(فكأنكم بالساعة تحدوكم حدو الزاجر بشوله ..)

ويشبّه الإمام عليّ الحياة الدنيا في خطبة أخرى _ وهو (عليه السلام) في سياق الدعوة إلى إتباع دين الله تعالى، وأنّ الله تعالى لم يخلقنا عبثاً، ولم يتركنا سدى، وأنّ ما يفصلنا عن جزائه هو الموت، وهو سيحلّ بنا، وشبّه الحياة الدنيا بالغاية المتنافس عليها للذين يسعون في سبيلها ليس غير _

[96] في خطبة رقمها : 156 , في كتاب نهج البلاغة , ص180 إصدار المستشارية الثقافية الإسلامية الإيرانية بدمشق.

بالبناء الذي ينتقص، ويتهدم بمرور اللحظات والساعات ؛ فالحياة الدنيا أيام وليال تمر على الإنسان، وتحدد عمره حتى يموت؛ ويرى الإمام (عليه السلام) في هذا دليلا كافيا على قصر مدة الحياة وسرعة زوالها وانتهائها . فالإمام يجعل من إحساسه بسرعة الزمن وسيره مستندا فيما يقول . قال الإمام عليّ[97] (عليه السلام) :

(.. وأنّ غاية تنقصها اللحظة , وتهدمه الساعة ؛ لجديرة بقصر المدة ..)

وربط الإمام عليّ (عليه السلام) فناء الحياة الدنيا بموت الإنسان كأنه يريد به من جهة الدعوة أن يخاطب الإنسان الفرد، أو يخاطب أعماق النفس الإنسانية ؛ كي تتحرك منصتة مستوعبة الموعظة التي تدعو إلى رفض هذه الحياة الدنيا من جهة التعلق القلبي إذ هي تتركنا بموتنا، وتبلي أجسادنا، وإن كنا نريد البقاء فيها، وتجديد أجسادنا ..

قال الإمام عليّ [98](عليه السلام) :

(عباد الله ، أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم، وإن لم تحبوا تركها، والمبلية أجسامكم، وإن كنتم تحبون تجديدها ..)

فالأمراض و الانتهاكات تصيب الإنسان في الحياة الدنيا وهو يعمل، ويسعى لما يظن فيه سعادته ورخاءه، ويجهد جسده في الأعمال التي منها قد تودي بحياته، أو تصيبه بعاهة، وعليه فإنّ الإمام علي (عليه السلام) يرى أن على الإنسان أن يرفض مظاهر الحياة الدنيا بقلبه ونية سعيه وعمله حتى يضمن لنفسه ولإبلاء جسده ثمناً في الآخرة . وهذا ما يذكرنا بحديث ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه)[99] فلما كان العمل في الحياة الدنيا لا بدّ منه[100] ، ولما كانت الحياة الدنيا محل فناء الإنسان وبلاء جسده فما ينجي يوم لقاء حساب الله تعالى هو عدم ضياع هذا الجسد وهذا العمر في ميادين التنافس على عزّ الحياة الدنيا وفخرها و زينتها ونعيمها ؛ لأنها زائلة فانية سواء بموت صاحبها أم قبل موته بانتكاسه و ضياع ما ينعم به؛ وهذا يحصل لكل ذي نعمة أو فخر .. وكما أنّ ضراء الحياة الدنيا وبؤسها لها نفس المصير أيضاً.

قال الإمام عليّ [101](عليه السلام) :

---

[97] الخطبة رقم : 65 , في كتاب نهج البلاغة , ص 63 .

[98] الخطبة رقم : 98 , ص 108.

[99] الصدوق كتاب الخصال, ص253 .

[100] أنظر مبحث زاد الحياة الدنيا أو العمل .

[101] الخطبة رقم : 98 , ص 109.

(فلا تنافسوا في عزّ الدنيا وفخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها فإن عزّها وفخرها إلى الانقطاع ، وإنّ زينتها ونعيمها إلى زوال، وضرائها وبؤسها إلى نفاد، وكلّ مدّة فيها إلى الانتهاء، وكلّ حيّ فيها إلى فناء)

إذن فناء الحياة الدنيا هو فناء مظاهرها وكلّ ما فيها وأهمها الإنسان أيّ أنّ الإمام علي (عليه السلام) بين لنا وهو يعظ ، ويدعوا إلى حرث الآخرة كيف تتم عملية فناء الحياة الدنيا المستمرة وذلك بما يجري على أجزائها الطبيعية أو الاصطناعية الإنسانية كمظاهر النعيم أو المضار من تحول إلى فناء أو موت.

ويجعل الإمام عليّ (عليه السلام) من آثار الفناء في الحياة الدنيا التي خلفها الماضون من الأمم السالفة محل الاعتبار والاتعاظ في الخطبة نفسها حيث أستنكر فيها متسائلاً عن عدم الازدجار من تلك الآثار، ومحتجاً بما يعظهم، وينبئهم من فناء الحياة الدنيا ومن فيها بأن الباقين على أثر الماضين سائرون إلى الفناء والموت، وأنّ هذه العملية مستمرة وكائنة أمام أعين مستمعي خطبته .

قال الإمام عليّ [102](عليه السلام) :

(أو ليس لكم في آثار الأولين مزدجر، وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون . أولم ترو إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف لا يبقون . ألستم ترون أهل الدنيا يصبحون ، ويمسون على أحوال شتى ؛ فميت يبكي ، وآخر يعزي ، وصريع مبتلى ، وعائد يعود ، وآخر بنفسه يجود ، وطالب للدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وعلى أثر الماضين ما يمضي الباقون)

و لما كان الموت دالا على فناء الحياة الدنيا والإنسان كانت نظرة الإمام عليّ (عليه السلام) للموت وفق الإسلام إلى أنها دافع لترك العمل للحياة الدنيا والركون إليها والامتناع عن الأعمال الشائنة القبيحة التي تكون في سبيل الملذات والشهوات . فالموت هو هادم الملذات ومنغص الشهوات ؛ وذلك لكل من يتفكر به ، ولا ينسى أنه سيحل به غدا أو بعده ، ولا مفر منه، فعندها ينقطع عن الأماني والآمال والأطماع و الملذات التي يسعى إليها بالأعمال القبيحة ؛ وما الأعمال القبيحة في نظر الإمام علي (عليه السلام) إلا التي تخالف أحكام الله تعالى ولا تراعي ما حلل ، وما حرم .

102 الخطبة نفسها.

فطالب الإمام (عليه السلام) بتذكر الموت ، والاستعانة بالله تعالى لتنفيذ أحكامه تعالى استعدادا ليوم الحساب ، وعلى الكثير من نعمه التي لا تعد ، ولا تحصى مما حسّنه وحلله في الحياة الدنيا . قال الإمام عليّ [103] (عليه السلام) :

(ألا فاذكروا هاذم اللذات ومنغص الشهوات وقاطع الأمنيات عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا الله على أداء واجب حقه وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه)

وكأنّ أشد خطبة خطبها الإمام عليّ في ذمّ التعلق القلبي بالحياة الدنيا والتذكير بنهايتها الحتمية..

هي خطبته التي تسمى الغرّاء . فالإمام عليّ (عليه السلام) يبدأ فيها ببيان حال الحياة الدنيا ومآلها ومآل الإنسان فيها بصور متتابعة من صور الحياة الدنيا مستعارةٍ من صورة النبع أو المورد الكدر وصورة الضوء الآفل بعد اشتعال وتوهج ، وصورة الظلّ الزائل بعد تمدد وانتشار، وصورة سناد مائل لا يمكن الاعتماد عليه . وكلّ هذه الصور المستعارة كشفاً لحقيقتها وفنائها وانتهائها بعد وجودها وعيشها ومدّتها.

قال الإمام عليّ [104] (عليه السلام) :

(فإن الدنيا رنق مشربها ردغ مشرعها ، يونق منظرها , ويوبق مخبرها , غرور حائل، وضوء آفل، وظل زائل، وسناد مائل)

وشخّصها بالدابة التي تدب الأرض بأرجلها معاً وتصطاد بشباكها وتقتل بأسهمها القاتلة دون تأخير، وتربط المرء بحبال الموت . فانتقل الإمام عليّ (عليه السلام) إلى ما يجعل المتلقي يتحسس هذه الحقيقة في نفسه مصوراً الحياة الدنيا و الإنسان المغرور بها باستعارة صورة الوحش الضاري الذي يفتك بضحيته ، لينتقل إلى عالم القبر والانتظار ليوم القيامة حيث المضجع الضيق والوحدة و الوحشة ومشاهدة المصير الّذي يحلّ به في الآخرة تلقاء عمله والعياذ بالله . هذه هي حال الحياة الدنيا، وحال الإنسان فيها سلفاً وخلفاً . و كلّ تلك الصور كأنها مشاهد تتحرك أمام أعيينا.

قال الإمام عليّ [105] (عليه السلام) :

(حتى إذا أنس نافرها واطمأن ناكرها ؛ قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبلها، وأقصدت بأسهمها، وأعلقت المرء أوهاق المنية قائدة له إلى ضنك المضجع ووحشة المرجع ومعاينة المحل وثواب

---

[103] الخطبة نفسها.

[104] الخطبة رقم : 82 , ص 74 رنق : كدر , ردغ: كثير الطين والوحل , يونق: يعجب , يوبق: يهلك .

[105] الخطبة نفسها , أعلقت.. أوهاق : علقت به حبال الموت , لا تقتلع المنية اخترااماً : لا تكف عن إهلاكهم , ولا يرعوي الباقون اجتراماً ..إرسالا: لا يكفون عن الجرائم مقتدين في ذلك بالسلف كقطعان الإبل والغنم , صيّور الفناء : ما يؤول إليه .

العمل . وكذلك الخلف بعقب السلف لا تقلع المنية اختراما، ولا يرعوي الباقون اجتراما ؛ يحتذون مثالاً، ويمضون إرسالاً إلى غاية الانتهاء وصيّور الفناء .)

ويمضي الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبته إمعاناً في تحريك النفوس وإيقاظ الشعور وإجلاء القلوب لتقبل الدعوة في وصف الإنسان وما يتنعّم به من النعم الفطرية التي تعطيه القدرة على الحياة والعمل والتمتع بالعيش وتكسبه جمال المنظر على سائر خلق الله تعالى . قال الإمام عليّ [106] (عليه السلام) :

(جعل لكم أسماعا لتعي ما عناها وأبصاراً لتجلوا عن عشاها وأشلاءً جامعة لأعضائها ملائمة لاحنائها في تركيب صورها ومدد عمرها بأبدان قائمة بآفاقها وقلوب رائدة لأرزاقها في مجللات نعمه وموجبات مننه وحواجز عافيته)

ليصل الإمام إلى ذكر حتميّة فناء كلّ ذلك على سمت السابقين، وتحول الإنسان من حال الغض النضر السليم في بدنه إلى الهرم والضعف والموت والانتقال إلى دار أخرى وترك الأهل والأصدقاء . ويدخلنا الإمام عليّ مرة أخرى في مشهد الإنسان الميّت الراقد في قبره بأكثر تفصيل وأشد تأثير في المتلقي حيث الحشرات والديدان تلقف جسده، وتنخر به . وتبقى الروح رهينة بما كسبته، فلا تستزيد من عمل صالح، ولا تطلب العفو عن عملها السيئ السالف في حياتها الدنيا .

قال الإمام عليّ [107] (عليه السلام) :

(قدر لكم أعماراً سترها عنكم، وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم من مستمتع خلاقهم، ومستفسح خناقهم ؛ أرهقتهم المنايا دون الآمال، وشذّ بهم عنها تخرم الآجال؛ لم يمهدوا في سلامة الأبدان، ولم يعتبروا في أنف الأوان. فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلا حوابي الهرم؟! وأهل غضارة الصحة إلا نوازلالسقم؟! وأهل مدّة البقاء إلا آونة الفناء؟! مع قرب الزّيّال، وعلز القلق، وألم المضض، وغصص الجرض، وتلفت الاستغاثة بنصرة الحفدة، والأقرباء، والأعزة، والقرناء . فهل دفعت الأقارب، أو نفعت النّواحب ؟! وقد غودر في محلة الأموات رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً؛ قد هتكت الهوام جلدته، وأبلت النّواهك جدّته، وعفت العواصف آثاره، ومحا الحدثان معالمه ، وصارت الأجساد شحبة بعد بضّتها، والعظام نخرة بعد قوتها، والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها موقنة

---

106 الخطبة نفسها , مجللات النّعم : ما تعمّ الخلق, الحواجز الموانع.

107 .. نفس المصدر , الخلاق : النصيب الوافر من الخير , الخناق: حبل يخنق به هنا , أرهقتهم : أعجلتهم , شذّبهم: قطعهم وفرقهم تخرم الآجال: استئصاله واقتطاعه , أنف الأوان: أوله وأمر أنف: مستأنف لم يسبق به قدر, البضاضة:امتلاء البدن وقوته, الزّيال: من الزوال والإزالة , علز : خفة وهلع يصيب المريض والأسير والمحتضر, المضض : بلوغ الحزن من القلب , الجرض : الريق , قدّتهم : طريقهم .

بغيب أنبائها. أو لستم أبناء القوم ،والآباء، وإخوانهم ،والأقرباء، تحتذون أمثلتهم ،وتركبون قدّتهم، وتطؤون جادتهم؟(!

هي تذكرة صادقة العاطفة تمس القلوب، وتشدّ النفوس إلى الصور، وتخيّلها؛ أرادها الإمام عليّ (عليه السلام) لتمسّ القلوب القاسية، والمغرورة بالحياة الدنيا، والاهتمام بزينتها، وعزّها، ومجدها خارج شرع الله تعالى، وأحكامه، وكأنّها ترى إصلاحها، ونجاحها هو في إحراز عزّ الحياة الدنيا، ومجدها، وعدم الاهتمام بالتكاليف الشرعيّة الإلهية إذ

قال الإمام عليّ [108] (عليه السلام) :

(فالقلوب قاسية عن حظها لاهية عن رشدها سالكة في غير مضمارها كأنّ المعنيّ سواها ،وكأن الرشد في إحراز دنياها)

وكلّ ما سبق بيّن أنّ الإمام عليّ يربط فناء الحياة الدنيا بفناء الإنسان ؛ سواء كان فناء الحياة الدنيا هو فناء الإنسان، وهذا بالنسبة إليه أم أنّ الحياة الدنيا ذاتها بما تحويه والإنسان أيضاً من محتوياتها مصيره الفناء والاندثار..

وكان فناء الحياة الدنيا من أهم دواعي التحذير من الافتتان بالحياة الدنيا، والاطمئنان إليها، والاشتغال بالملذات ،والشهوات المرتبطة بمظاهرها المخالفة لشرع الله تعالى .

واعتمد الإمام عليّ (عليه السلام) على تأمل ظواهر الحياة الدنيا، وما يعتريها من تغيّر، وتبدل، وموت، وسرعة الزمن كي ينقل حقيقة هذه الحياة الدنيا، ومآلها.

إذ كانت منهجية الإمام عليّ قائمة على التفكير في الحياة الدنيا، والاعتبار من مصيرها، فينثر حكمة عقلية تعتمد على المحاكمة، والاستنتاج .

من ذلك قوله[109] عليه السلام : (رحم الله امرئً تفكر، فاعتبر، واعتبر ،فأبصر، فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأن ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل، وكلّ معدود منقص ،وكلّ متوقع آت، وكلّ آت قريب دانٍ)

هذه المحاكمة العقلية، والاستنتاج الفكريّ ؛ كالمعادلة الرياضية ؛ تبين بأنّ الحياة الدنيا وما فيها من حوادث، ووقائع، وأمجاد، وزخارف، وحضارات، وما يحدث للإنسان فردا، أو مجتمعاً، أو أمة من مجد، وسرور، وهناء، أو هزيمة ،وضنك، وحزن ؛ كلّ ذلك إلى الفناء المحتوم، والانتهاء ؛ فلا

---

108 ..نفس المصدر .

109 الخطبة رقم : 102 , ص 113.

حال، ولا حادث، ولا واقع دائم البقاء، والوجود في الحياة الدنيا؛ لذا كلّ ما سبق كأنّه لم يكن موجوداً ما دام مصيره الزوال . وبالمقابل كلّ ما هو موعود به الإنسان في الآخرة باقٍ لا يزول، وهو قريب لأنه متوقع، والمتوقع حاصل قادم كما أنّ كلّ معدود محدود ناقص بائد .

هذا كان خطاباً للعقول مباشرةً بلغته، وظهر لنا أنّ الإمام عليّ (عليه السلام) كان كثير الخطاب بلغة الفنّ، أو الصورة الفنيّة تحديداً . من مثل قوله [110] عليه السلام :

(فهيّ عند ذوي العقول كفيء الظلّ ؛ بينا تراه سابغاً حتى قلص، وزائداً حتى نقص ..)

فيشبّه فناء الحياة الدنيا بتقلص، ونقصان الظلّ بعد تمدد، وزيادة ؛ أيّ أنّ الحياة الدنيا تتمدد، ويطول بها الزمان، وقد ظهر لنا أنها تتمدد مكاناً أيضاً بحسب نظرية الانفجار الكوني و وتوسع الكون ؛ الّذي قيل أنّ علماءً سمعوا بعد تجارب دقيقة أصداء هذا الانفجار[111]. حتى إذا جاء أمر الله تعالى، وهي صارت سابغة ممتدة، فيردها الله تعالى إلى النقصان، والذبول، و كما شبّهها الإمام عليّ (عليه السلام) بنقصان الظلّ، تشبيهاً بليغاً ؛ أصاب عين الواقع الذي كان مغيّباً عن أهل زمانه، واكتشف اليوم جزء قليل منه . ولهذا التشبيه ألطاف كثيرة تحتاج لأبحاث دقيقة، وتكشف أنّ الكون ما هو إلا ظلّ لتجلي الله أو لأمره، وسلطانه، و قدرته على ما تجلى . وليس الكون حقيقة واقعية بمفهومنا[112]، فظلّ الشيء هو غيره، وإن كان الظل يعبّر عن وجود الذي بسببه وجد الظل . ولنتمثل بالإنسان الذي له ظل، فظله غيره، ولكنّ ظله بسبب الشمس الواقعة على الإنسان، فنشأ الظلّ للإنسان ؛ أي. الله جلّ وعلا تجلى، فظهرت الكائنات، والكائنات هي ظلّ للذي تجلى الله جلّ وعلا عليه، و ما يعلم الشيء الذي تجلى الله عليه إلا الله . وحقيقة التجلي، وحقيقة الشيء الذي تجلّى له الله فضلا عن الحقّ تبارك وتعالى ؛ كلّ ذلك متعذّر لنا (ليس كمثله شيء)[113] (لا تدركه الأبصار ..)[114] (الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن)[115] . لقد ألمح الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام لهذا مرة أخرى بقوله في صفة الدنيا (ظلّ زائل)[116] إذن كرر لفظ الظلّ مرتين في وصف الدنيا؛ على الأقل كما ورد في كتاب نهج البلاغة، ولا شكّ لكلام الإمام عليّ (عليه السلام) أسرار و تلميحات؛ يرجو الكاتب أن يكون عرف منها شيئاً صحيحا ومفيداً .

---

[110] الخطبة رقم : 62 , ص 61.

[111] كما أوردته وسائل الإعلام المرئية .

112[112] كما قال العرفاء أنّ الكون خيال في خيال .

113[113] من الآية 11 من سورة الشورى .

114[114] من الآية 103من سورة الأنعام .

115[115] من الخطبة الأولى من كتاب نهج البلاغة .

116[116] من الخطبة رقم 82 ص 74 .

وبعد :

فقد بحث الكاتب في مجموعة خطب للإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) عن فناء الحياة الدنيا، وتبيّن أنّ فناءها لها وقائع، وأهمّها ما يشمل الإنسان في الحياة الدنيا من تبدل في جسمه، وقوته، وصحته، وتقلب في حاله النفسية من سرور إلى حزن، وغير ذلك وصولاً إلى الفناء، أو الموت، وأنّ هذه الوقائع سنّة دائمة في الحياة الدنيا شاملة الإنسان، وغيره من الكائنات بدون تغيّر، وتبدل على مرّ الأجيال[117]، والإنسان وهو يشاهد، ويعاين هذه الأحداث في نفسه، وفي من سبقه ينسى، ويغفل بالاشتغال بالعمل الهادف للذّة، أو شهوة عائدة لمظاهر العزّ، والزخرف، والمجد، والراحة، والترف، والبذخ، والإسراف، ولو على حساب أخيه الإنسان، وتضييع الحقوق، فيكون بينهما التصارع، ويكون الناس ما بين ظالم، ومظلوم، ومعتد، ومعتدى عليه، وإذا كنّا نريد أن نبحث في حال الإنسانية في الحياة الدنيا كما صوّره، وبيّنه الإمام عليّ (عليه السلام)، فسيكون في المبحث التالي إن شاء الله تبارك و تعالى .

ثانياً حال الإنسان في الحياة الدنيا :

وقف الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أمام أصحابه، وقد تأمل ونظر في الحياة، وحال أصحابه بنظرة تستند إلى إيمانه، ويقينه التام .. , فرآهم ضيوف هذه الحياة الدنيا لأجل مسمى، و حياتهم دَيناً مقتضى، وعملهم محفوظاً، فلا يضيع عمل، ولا يخسر كادح عند الله تعالى . وعمل العامل، وكدح الكادح لغير الله تعالى ضائع خاسر، لأنه لما هو فانٍ منتهٍ .

قال الإمام عليّ [118](عليه السلام) :

(عباد الله.. إنكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء[119]* مؤجلون، ومدينون مقتضون أجل منقوص ، وعمل محفوظ، فرُبّ دائب مضيع، ورُبّ كادح خاسر)

وتابع خطبته مبيناً لأصحابه بأنّ زمانهم يزداد الشرّ فيه، وينقص الخير منه، ويطمع الشيطان بأهله . وذكر مظاهر الفساد، والانقياد للشيطان من تصادم ، وتقلب لأحوال الناس في الحياة من فقر، وغنى، وبخل، وتعد غير مرتدع .

---

117 وذلك رغماً عن الجهود الجبارة التي يحاول الإنسان فيها تحقيق أكبر قدر ممكن من الصحة والقوة وتطويل العمر حسبما قدّر الله تعالى لكن لا يمكن مع كلّ ذلك إلغاء الموت ودفعه عن الإنسان وقد قرأت مقالاً بين أنّ سبب الموت كائن في موروث الإنسان وهذا ما يذكرنا بقول الله تعالى (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ..) من سورة الواقعة الآيات 58و59و60 .

118 .. رقمها : 129 , ص 149.

119* أثوياء : ضيوف . مفردها : ثاوي .

قال الإمام عليّ [120](عليه السلام) :

(اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً!؟ أو غنيّاً بدل نعمة الله كفراً!؟ أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً!؟ أو متمرداً كأنّ بأذنه عن سمع المواعظ وقراً!؟)

وكأنّ الإمام عليّ عليه السلام بيننا يعاين ما هو كائن اليوم، ويصف ما هو حاصل ظاهر في مجتمعاتنا.

ويصل الإمام عليّ (عليه السلام) إلى تساؤلات عن الصالحين، والأبرار، والمتورعين في مكاسبهم، والنزيهين في أعمالهم، تساؤلات تحمل معنى انتفاء وجودهم . فظهر الفساد في عصر لا يبعد عن عصر النبوة إلا سنوات معدودة، ورغم ذلك نجد حكم الإمام عليّ (عليه السلام) على هذا العصر هو شبيه بما يجب أن نحكم به على عصرنا اليوم.

إذا ؛ حال مستمرة من تقلب، وتعد ونفاق، وكذب، ودجل، واستغلال لدين الله وللبشر، ولا شكّ أنه لا تخلوا الأرض من الصالحين .. إلا أنّ الظاهر قليل بالمقارنة بالكثير من الفاسدين، والمنحرفين . هؤلاء الذين لا منكرا يغيّرون، ولا من زاجر يزدجرون، فحق للإمام عليّ (عليه السلام) أن يتساءل تساؤل النافي عن مجاورة هؤلاء لله تعالى في دار قدسه، ويكونوا أعزّ أوليائه، فكثيرون يظنون ذلك بدون أيّ عناء، وعمل، ولا تورع في السلوك . لينتهي الإمام علي (عليه السلام) إلى الدعوة على الذين يأمرون بالمعروف، ولا يقومون به، وينهون عن المنكر، وهم يعملون به بأن تحلّ عليهم لعنة الله تعالى .

قال الإمام عليّ [121](عليه السلام) :

(فلا منكر مغيّر، ولا زاجر مزدجر . أفبهذه تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه وتكونوا أعزّ أوليائه!؟ . هيهات، لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهيين عن المنكر العاملين به)

ونستطيع بعد استعراض الخطبة السابقة أن ندخل في بنية حال الإنسانية في الحياة الدنيا كما بيّنها الإمام عليّ (عليه السلام) على أنّها صالحة، وطالحة؛ أفرزت عدة أحول اقتصادية، وأخلاقية مضطربة متصادمة، وهذه الحال هي حال سلوكية اجتماعية . وأفضل قبل الدخول في تفصيل أكثر عن هذه الحال أن ابحث في الأحوال الطبيعية للإنسان التي تعود إلى جسده، ونفسه وقد مرّ معنا في

---

[120] ..نفسها.

[121] .. نفسها.

المبحث السابق أنّ الإنسان لا يبقى على حاله الطبيعية من صحة، أو مرض، ومن قوة، أو ضعف، ومن سرور، أو حزن، ومن خوف، أو أمن .. والإمام عليّ (عليه السلام) في خطبة له يدعوا الناس إلى النظر في الدنيا نظر الزاهدين، والمبتعدين، ويعلل دعوته بتقلّب أحول الناس فيها . فلا سكنى في الحياة الدنيا أبداً لأحد، فهو ضيف إلى زواله، ولا أمن من الفجيعة فيها لأحد، والسرور فيها مختلط بالحزن، والجلد مصيره الضعف، ولا يصحبنا منها إلى الدار الآخرة من موادها إلا القليل، وليس هذا القليل، فيما يرى إلا كفنا .

قال الإمام عليّ [122](عليه السلام) :

(أيها النّاس ؛ انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين عنها؛ فإنّها والله عمّا قليل تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المترف الآمن، لا يرجع ما تولّى منها فأدبر، ولا يدرى ما هو آت منها، فينظر. سرورها مشوب بالحزن، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن . فلا يغرنّكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها)

والمظاهر المتقلبة التي ذكرها الإمام عليّ (عليه السلام) تعود إليه نفساً وجسداً . فالسرور يكاد يكون غاية في الأعمال الإنسانية، فالإنسان يبحث عن كلّ شيء سار مبهج للنفس، ويريد تحقيق كلّ ما يؤدي إلى ذلك، فإذا رأى أنّ المال يحقق له السعادة، والسرور في العيش، فإنه يندفع وراء تحصيل المال بشتى الوسائل، وإن كان يرى أنّ سعادته، وسروره يتحقق في السلطة، فإنّه يسعى لها بكلّ جهده، وكذلك في كلّ عمل وسعي إنسانيّ .. أمّا الواقع فإنّ الإمام عليّ يبيّن أن لا سروراً خالصاً في الحياة الدنيا، وإنّما هو مشوب بالحزن، والحزن أيضاً حالة نفسية صعبة يتجنبها الإنسان، ولا يريدها، وهذا يعني بأن الحالة النفسية الإنسانية في الحياة الدنيا غير مستقرة بين سرور وهو أصل لكل الحالات النفسية المبهجة، والحزن وهو أصل لكلّ الحالات النفسية المضطربة أو غير البهجة، وليس خافيّاً أنّ الحزن أيضاً حال نفسية تنتج من سلوك الإنسان، وتعامله مع محيطه . وإلى هذا أيضاً توجه الإمام عليّ (عليه السلام) في إيراد لفظة الجَلَد الدالة على القوة، والصحة الجسدية، وهذا أصل لخلو الجسد من الأمراض والعاهات .

ولا ريب أنّ كلّ إنسان يسعى لتقوية جسده، وتفضيل الصحة الجسدية، والخلو من الأمراض، والمعاقات التي تمنع الجسد من القيام بوظائفه الكاملة .. لكن حال الإنسان الجسدي كحاله النفسي لا يستقر على حال القوة، والصحة، وترى الضعف يسري إلى الجسد إما بسبب مرض ألمّ به، أو تقادم

---

[122] .. رقمها : 102 , ص 131.

العمر، وتعب الجسد عند الشيخوخة حيث يبدأ الجسد بالضمور، والضعف، فلن يستطيع حينئذ الاستمرار في أعماله التي كان يتأمل منها تحقيق سعادته، وسروره في الحياة الدنيا لذا نجد كثيراً من العجائز الذين هم بعيدون عن الروح الإيمانية، والفرائض الدينية يعيشون ظروفاً صعبة، ومع إهمال أولادهم لهم خاصة، ونجد منهم من يلجأ إلى العبادة، وإن كانوا من قبل في شبابهم لا يمارسون العبادة حق الممارسة . هذا فضلاً عمّا قد يعانيه العجوز بسبب ضعفه الجسدي من هجوم الأمراض عليه التي تمنعه من القيام بأعماله الاعتيادية المنزلية، وأحياناً يصل العجوز لدرجة خطيرة بعجزه، وضعفه الجسدي لتؤثر على تفكيره، وذاكرته، فيحلّ به ما يسمى بالخرف، وهذه الحال سمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بأرذل العمر ، واستعاذ منها بالله تعالى ، ووردت في القرآن الكريم في سورة ياسين الآية68 : (ومن نعمره ننكسه في الخلق ..) أعاذنا الله _تبارك ،و تعالى_ منها.

وبعد :

فما سبق بحثه كان في حال الإنسان الفرد المكون من الروح، والنفس، والجسد، ووجدنا تقلب، وتحول حاله النفسية، والجسدية في الحياة الدنيا ما بين مرغوب، ومذموم من الإنسان ، ولكنها تبقى تتجه إلى الضعف والفناء .

ونعود إلى حال الإنسانية، أو المحيط الاجتماعي الإنساني، وتفاعل الفرد معه الذي خاطب به الإمام عليّ (عليه السلام) بإيمانه، وشعوره الإسلامي بأن الحياة الدنيا محل مرور إلى الآخرة، والإنسان فيها مكلّف بالعمل بشريعة الله تعالى، وإتباع رسله، وكتبه إذ قال الإمام عليّ [123] (عليه السلام) :

(الدنيا دار ممر لا دار مقر، والناس فيها رجلان رجل باع نفسه، فأوبقها , ،ورجل ابتاع نفسه ، فأعتقها)

والرجل الذي باع نفسه هو باعها لمظاهر الحياة الدنيا، فسعى إليها دون مراعاة لشرع الله تعالى، فظلم، وتعدّى . والرجل الذي اشترى نفسه هو الرجل الذي سعى وفق شرع الله تعالى، ولم يظلم، ولم يتعدى، فخلّصها من عقابه تعالى .. وما يؤيد هذا الفهم، قول الإمام عليّ [124] (عليه السلام) :

(وليس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً , وما لك عند الله عوضاً)

والإمام عليّ (عليه السلام) في الخطبة هذه يصنّف الناس إلى أربعة أصناف فقال (عليه السلام) :

---

[123] من حكمة رقمها : 128 , ص 431.

[124] من خطبة رقمها : 32 , ص 41

* كلالة : ضعف , نضيض : قلّة

(والنّاس على أربعة أصناف ؛ منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حدّه، ونضيض* وفره)

وكأنّ هذا الصنف لا سعياً لتحقيق الأمانة التي حملها في الأرض يمتنع عن الفساد، وإنمّا ضعفه يمنعه، فإذا ما حصل على القوة، لا ينفكّ بالعمل فساداً، وسفكاً للدماء في الأرض بدون همّ لضياع دينه، وعدم تحقيق الأمانة، وإنّما سعياً لنهب المال بالقوة، والوسائل غير المشروعة، أو للسيطرة على أنعام، وأناس، أو حكم، وسلطة . ووصف الإمام عليّ الذي يحصل على القوة بوصف الذي يشهر سيفه، ويوجهه للقتال، ويظهر نفسه بالشرّ، ويجلب الخيل، والرجال التابعين له ؛ حتى يحصل على ما يبتغيه بلا حساب لله تعالى، وشرعه. هذا هو الصنف الثاني الذي تلاه الإمام علي في نفس الخطبة

إذ قال (عليه السلام) :

(ومنهم المصلت بسيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله، ورجله قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه، أو مقنب[125]* يقوده، أو منبر يفرعه[126]،* ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، وما لك عند الله عوضاً)

ويذكر الإمام الصنف الثالث الذي يتجلبب بالدين، والعمل الصالح طلباً للسمعة، والرياء في سبيل تحقيق رغباته، وملذاته الدنيوية، فوصفه على وصف الذي يزهد، ويستكين في خطواته، ويشمر عن ثوبه زهداً ،ويظهر نفسه بأجمل منظر بالأمانة، والورع لكنه يستغل ستر الله تعالى على حقيقته أمام الناس، فيعصي الله خفية عن أعين الناس .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ؛ قد طامن[127]* من شخصه، وشمّر عن ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية ..)

وبقي الصنف الرابع الذي ابتعد عن الصراع على حقارة نفسه التي لا تأبى الذل والهوان، والظلم، والعدوان ادعاءً للقناعة، والزهد، وهو ليس له سبيل في ذلك بل محض ادعاء، وتبرير لضعفه، وتخاذله، وإظهاراً لفضله الكاذب بالقناعة، وادعاءً بالزهد .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

---

[125]* مقنب : بين ثلاثين وأربعين جواداً

[126]* يفرعه : يعلوه

[127]* طامن : خفض

(ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصّرته الحال على حاله، فتحلّى باسم القناعة، وتزين بلباس الزهادة، وليس من ذلك من مراح، ومغدى[128](*

ويتحول الإمام عليّ إلى الصنف الصالح من الناس الذين لا همّ لهم ولا غاية إلا رضى الله تعالى , فيعملون في سبيل ذلك ، فيصطدم بهم المغرورون بالحياة الدنيا، وأمجادها ومظاهرها المترفة , فيشردونهم ، ويقمعونهم ، ويسدّون أفواههم فهم دعاة مخلصون لله تعالى، ومحزونون وموجوعون قد نسيهم الناس لتقياهم ، وحلّ بهم الذل في حياة هي أصعب من أن تعايش . ووصف الإمام عليّ هؤلاء الصالحين بوصف رجال يغضون أبصارهم عن الحرام، وتنهمر دموعهم تذكراً وخوفاً ليوم الرجوع إلى الله تعالى والحساب، وصوّر حياتهم بصورة البحر الأجاج لصعوبتها وعسرها.

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأرق دموعهم خوف المحشر، منهم بين شريد ناد وخائف مقموع وساكت مكعوم وداع مخلص وثكلان موجع؛ قد أخملتهم التقيّة، وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج أفواههم ضامزة، وقلوبهم قرحة قد وعظوا حتى ملّوا، وقهروا حتى ذلّوا، وقتلوا حتى قلّوا)

وبلاغة صورة بحر أجاج في استعارتها للحياة الدنيا بالنسبة لهؤلاء المتقين الزّاهدين والمدافعين عن الحق والعدل من الذين همهم زخرف الحياة الدنيا وعزها ومجدها ولو على حساب الآخرين ظلماً وعدواناً؛ فصارت الحياة مع هؤلاء كالبحر الأجاج لا حياة فيها، أو تكاد أحياؤها أن تموت دلالة على موات هؤلاء المتعلقين غروراً وظلماً بالحياة الدنيا، والمتقون الزاهدون هم الأحياء الذين يجدون صعوبة وعسراً في الحياة معهم .

هذه الصورة الجميلة التي أبدعها الإمام علي (عليه السلام) هي من معاناة وتجربة حيّة وعميقة التأثير في نفس الإمام عليّ (عليه السلام) من الأحداث التي عاصرها وواجهها في مرحلة ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي أتينا على ذكر موجز لها فيما مضى[129] .

وبعد :

فقد ظهر أن الإمام عليّ (عليه السلام) أبان تقلّب وتنوع المجتمع الإنساني بتصنيف أفراده على أعمالهم وغاياتهم وهي تتصادم أو تتدافع مما يعني أنّ المجتمع الإنساني لا يعرف قراراً والإمام عليّ

---

[128]* المراح : المكان الذي تأوي إليه الماشية بالليل . المغدى : المكان الذي تأوي إليه الماشية بالنهار

[129] انظر الفصل الأول ؛ مبحث : موقف الإمام عليّ ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(عليه السلام) لا يصف بتجرد، وإنّما يقيّم؛ فهو يرفض الأصناف التي ذكرها، وهي المتعلقة بالحياة الدنيا غروراً وبأشكال متغايرة، ويقبل الصنف الزّاهد التقيّ .

وتتبع خطب الإمام عليّ (عليه السلام) يجعل الكاتب يفصّل أكثر في بحث القسمين من النّاس الزّاهدين والمغرورين بالحياة الدنيا ؛ حتى يفصّل أكثر في حال الإنسان في الحياة الدنيا.

أولاً المغرورين بالحياة الدنيا :

والإمام عليّ (عليه السلام) شهد هذا القسم من النّاس، وعانى منهم أيضاً سواء من أعدائه الذين عادوه طمعاً بزخرف الحياة الدنيا وتعلقاً بمظاهرها من جاه ومال كما بيّن هو في خطبة له[130] ، أم من كثير من أصحابه الذين منهم من تثاقل عن الجهاد معه ضد أهل البغي، ومنهم من اختلفت كلمتهم، وتفرق جمعهم، وخرجوا عليه .

و بيّن الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبة له ألقاها على مستمعيه محذراً من التعلق المغرور بالحياة الدنيا، فإنها منزلة قلعة أي لا قرار لها، فهي منقلعة، وليست بدار نجعة أيّ أنّها ليست محل الانتجاع مشبهاً الذي يطلب ملذات الدنيا بالذي يطلب المرعى، فيقضي حاجاته، ورعيه لكن الإمام (عليه السلام) ينفي أن تكون الدنيا داراً لتحصيل كلّ الملذات كالمنتجع أو المرعى، وإنّما هي دار اختلط فيها الحلال بالحرام والحلو بالمرّ ليصل الإمام عليّ (عليه السلام) إلى وصف حال المغرورين وهم متعلقون بالحياة الدنيا إذ قلوبهم نسيت الموت، وتعلقت بالآمال الدنيويّة، فافترقوا بسببها إذ خبثت سرائهم وضمائرهم وهم أخوان، فامتنعوا عن أيّ عمل صالح فيما بينهم قال الإمام عليّ [131] (عليه السلام) :

(قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت بكم الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة، وإنّما أنتم أخوان على دين الله.. ما فرّق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر فلا توازرون، ولا تناصحون، ولا تباذلون، ولا توادّون)

هي حال المغرورين بالحياة الدنيا التي يفصّل الإمام عليّ (عليه السلام) في وصفها فيما تظهره قسمات وجوه المغرورين من فرح باليسير من الدنيا يدركونه والقلق على فواتها ..

---

[130] انظر الفصل الأول ؛ مبحث : موقف الإمام عليّ حاكماً.

[131] في خطبة رقمها : 112 , ص 131.

قال الإمام عليّ [132] (عليه السلام) :

(ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم وقلّة صبركم عمّا زوي منها عنكم كأنّها دار مقامكم، وكأنّ متاعها باق عليكم)

ويقرن الإمام عليّ (عليه السلام) هذا الغرور بالحياة الدنيا برذائل النفس، ومنها النفاق والتعامي عن العيوب، فالكلّ مشترك فيها، وهم متفقون على رفض الآخرة وحبّ الحياة الدنيا العاجلة؛ فأدى ذلك إلى أن يكون الدين كلمات وشعارات جوفاء لا حياة فيها، ولا تطبيق لها عندهم، وكأنهم فرغوا من واجباتهم وفرائضهم وحازوا رضى الله تعالى .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(وما يمنع أحدكم أن يستقيل أخاه بما يخاف من عيبه إلا مخافة أن يستقيله مثله قد تصافيتم على رفض الآجلة وحبّ العاجلة، وصار دين أحدكم لعقةً على لسانه صنيع من قد فرغ من عمله، وأحرز رضى سيّده)

وتوجد صور أخرى عن أحوال المغرورين بالحياة الدنيا ذكرها الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبة[133] له كشفت عن مدى تفكر الإمام (عليه السلام) في تلك الأحوال، ودوافعها التي تكمن كما بيّن الإمام عليّ (عليه السلام) في عدم الرغبة في إجابة الداعي إلى الآخرة، بل أقبل المغرورون على جيفة قد افتضحوا بأكلها مشبّهاً الدنيا بالجيفة يأكلونها على مرأى الناس على قذارة الجيفة وضررها.. فكذلك المقبلون على مظاهر الحياة الدنيا يتفاخرون بذلك، ولا يجدون في ذلك من عيب، ومن تجاوز على ضرر هذا الإقبال؛ فتجد مثلاً المقبلين على جمع الأموال بكلّ وسائل الشرّ من نصب واحتيال وسرقة واختلاس وربا وغير ذلك من الأعمال الظالمة المنحرفة وهم يفتضحون، ويعرفون بذلك، وكذا في الإقبال على السلطة والصراع عليها، ويدفعون في سبيل ذلك كلّ قيم العدالة والحقّ في مهبّ رياح صراعهم، ويحرقونها بنار خداعهم ونفاقهم وهم مشهورون بذلك، وكذا في مجمل مظاهر الحياة الدنيا .

ويصف الإمام عليّ (عليه السلام) هؤلاء المغرورين بالمرض والعمى لالتباس حبهم بالحياة الدنيا بقلوبهم وأسماعهم وأنظارهم؛ فكلّت، وماتت.. وهو (عليه السلام) لا يقصد هنا المرض المعروف؛

---

[132] في الخطبة نفسها .

[133] رقمها : 108 , ص 121

وإنما الانحراف الفكري والسلوكي عندما يعتقد أنه خلق ليوقف نفسه على تحصيل ملذات ورغبات الحياة الدنيا التي لا تشبع، ولا تنتهي.

قال الإمام عليّ [134] (عليه السلام) :

(ومن عشق شيئاً أعشى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة قد خرمت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولّهت عليها نفسه)

وبهذه الحال يصل الأمر بهؤلاء المغرورين إلى ما هو أخطر يكشف عن إشراك مقصود أو غير مقصود بالله تعالى، وعن غفلة؛ فلا يتعظ، ولا ينزجر بغيره .

قال الإمام عليّ [135] (عليه السلام) :

(فهو عبد لها، ولمن في يديه شيء منها

_ من مال أو سلطة أو نسوة .... _

حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها ؛ لا ينزجر بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ)

وهو شرك لا شك فيه، وهل هناك أوضح في تقرير هذا من قول الإمام عليّ (عليه السلام) في نفس الخطبة ؟ :

(وكذلك من عظمت الدنيا في عينيه، وكبر موقعها من قلبه أثرها على الله، فانقطع إليها، وصار عبداً لها)

ويدخل الإمام عليّ (عليه السلام) على ما تقتضيه حال هذه الخطبة، وحال ما يذكر فيها من أحوال المغرورين بالحياة الدنيا إلى تصويرهم، أو وصفهم، والموت ينزل بهم استكمالاً لصورة الحياة الدنيا وحال الإنسان فيها، وإبلاغا في الموعظة، وتحريكاً للنفوس، وإشعالا لأحاسيس الرهبة والخوف من هذا الغرور، وتذكيراً بحقيقة الحياة الدنيا ومآلها، وتحذيراً من فواتها على غير ما أمر الله تعالى به .. مشهد يصف إنساناً بعد رحلة الحياة الدنيا وهو يستعد لتوديعها ملقى على فراش الموت يتذكر أيامه الخوالي ومغامراته وأعماله التي كانت بدون مراعاة لشرع الله تعالى، ولا مبالاة من كسب حلال أو حرام ليتدخل الإمام (عليه السلام) بفكره الثاقب في وصف انتقال تلك الأموال إلى الورثة، فينعمون بها وهو يحمل عبئها ووزرها ليصوّر الإمام عليّ (عليه السلام) ذاك الإنسان المغرور بالحياة الدنيا نادماً على غروره بصورة العض على يديه، ثم يتلوها وصف الموت وهو يستحوذ عليه لينتهي به

[134] في الخطبة نفسها

[135] في الخطبة نفسها

في القبر وحيداً مرتهناً بعمله، وترك ما جمع فيها للغير من الورثة بدون التخلص من تبعات ما جمع على غير الحق .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(فغير موصوف ما نزل بهم اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها ألوانهم، ثمّ ازداد الموت ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنّه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع بأذنه على صحة من عقله وبقاء من لبّه؛ يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره، ويتذكر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها أخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها تبقى لمن ورائه ينعمون فيها، ويتمتعون بها فيكون المهنأ لغيره، والعبء على ظهره والمرء قد أغلقت رهونه بها، فهو يعض يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره ويزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره، ويتمنى أنّ الذي كان يغبطه بها، ويحسده عليها قد حازها دونه، فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع رجع كلامهم، ثمّ ازداد الموت التياطاً به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله قد أوحشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه لا يسعد باكياً، ولا يجيب داعياً، ثمّ حملوه إلى مخطّ في الأرض، فأسلموه فيه إلى عمله، وانقطعوا عن زورته)

ما كان هذا الوصف المفصل لمتجليات الموت، وحال الإنسان معها إلا استحواذاً على النفوس، وترهيباً لها حتى تنفذ الموعظة، والدعوة في الإنسان الصالح، ويستقيم على صراط الشريعة الإلهية .

هو مشهد قصصيّ بليغ، وعظيم التأثير في النفوس الصالحة، والقلوب الزاكية، والعقول الواعية .. هي خاتمة قصة المغرورين بالحياة الدنيا ومآلهم.

وبعد :

فقد مررنا على ما استطاع الكاتب أن يبحث في خطب الإمام عليّ (عليه السلام) التي وصفت، وصورت حال المغرورين بالحياة الدنيا، وهي باختصار :

* تعلق نيات وأعمال المغرورين بمظاهر الحياة الدنيا؛ مما ترتب عليه التصارع فيما بينهم عليها , فخبثت الأخلاق، وفشا النفاق بينهم .

* استخدامهم للوسائل غير المشروعة في صراعهم هذا وعدم اكتراثهم لانكشاف أمرهم ووسائلهم الفاحشة المنكرة الظالمة، بل هم يفتخرون بذلك .

* و صراعهم وانحرافهم أمات الإيمان في قلوبهم وفكرهم ونظرياتهم فهي مشركة بالله تعالى أو كافرة به .

* يندم المحتضر منهم على أعماله، وما فرط فيها من الحق، وما جمع بغيره ليراها صارت للورثة يستمتعون بها، وهو يتحمل وزرها في قبره حيث يكون رهينة أعماله في الحياة الدنيا .

ثانياً أحوال الزاهدين في الحياة الدنيا :

قال الإمام عليّ [136] (عليه السلام) :

(إنّ الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم، وإن ضحكوا، ويشتدّ حزنهم ، وإن فرحوا ، ويكثر مقتهم أنفسهم ، وإن اغتبطوا بما رزقوا)

القول ذا يختصر، ويجمع أحوال الزاهدين في الدنيا، ويكشف الزهد الصالح.. فالزاهدون كغيرهم من الناس ؛ يضحكون، ويفرحون، ويرزقون أي أنهم يعملون، ويتعاملون مع الناس ؛ لكن الفرق بينهم وبين المغرورين أنهم حذرون، و مشفقون، ومتقون لما عرفوا من حقائق الحياة الدنيا، وتقلب حال الإنسان فيها، و تذكرهم يوماً يرجعون فيه إلى الله تعالى حين الحساب على أعمالهم في حياتهم الدنيا .

وكانت تلك المظاهر المتناقضة من البكاء والحزن والمقت زهداً بهذه الحياة الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله تعالى، فهي ردود أفعال لعلماء متبصرين حقيقة الحياة الدنيا التي هي بلاء واختبار تجر الإنسان إلى حال غير مرضية ولا سعيدة سواء علم أم لم يعلم، رغب أم لم يرغب، فرّ أم واجه ...

إنهم متيقظون خائفون مشفقون يحققون تلك المعادلة الدقيقة التي قالها[137] الإمام عليّ

(عليه السلام) في خطبة له :

(كانوا قوما من أهل الدنيا، وليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليس منها ؛ عملوا فيها بما يبصرون، وبادروا فيها ما يحذرون تقلب أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة، ويرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم، وهم أشد إعظاماً لموت قلوب أحيائهم)

---

[136] في خطبة رقمها : 112 , ص 130

[137] في خطبة رقمها : 221 , ص 268

لكن ما الذي يبصرونه ؟ وما الذي يعملونه ؟ وكيف تحيى قلوبهم ؟ لقد أجاب الإمام عليّ (عليه السلام) عن هذه الأسئلة التي طُرحت في قولٍ له عند تلاوته قول الله تعالى :

(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) إنّ سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب تسمع به بعد الوقرة* ، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح الله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات* عباد ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم ..)[138]

إذن هو ذكر الله تعالى الذي يجلي الأنفس من الملوثات والانحرافات التي تصدئ القلوب و تشوش العقول ، وبالتالي وسائلها من الأبصار والأسماع، فيتعلقون بدلا عن مظاهر الحياة الدنيا بالله تعالى والخلوص إليه في العمل والفكر لدرجة أنّ الله تعالى يناجيهم في ذوات عقولهم التي صفت صفواً تامّاً من الغرور بأي مظهر دنيويّ و هي ليست كمناجاة، أو وحي الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام)، وصاروا بذلك أدلة للناس في حياتهم وسيرتهم إلى ما هو الخير والحقّ، فإذا ما سار أحد في الطريق الصحيح بشروه، و إذا أخطأ حذروه، فهم مصابيح الظلمات ظلمات الجهل والشك والشبهات، فشبّه الإمام عليّ (عليه السلام) هؤلاء بأعمالهم بالنور أو المصباح الذي يضيء الظلام وهو هنا ظلام أعمال الناس المنحرفة .

قال الإمام عليّ[139] (عليه السلام) :

(فاستصحبوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة يذكرون بأيام الله، ويخوفون مقامه بمنزلة الأدلة في الفلوات*؛ من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق، وحذّروه من التهلكة، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات، وإنّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً .)

كذلك تحققت المعادلة الدقيقة؛ فهم في ظاهرهم وبأجسادهم في الحياة الدنيا، وبروحهم وعقلهم وعملهم متعلقون بجلال الله وجماله.

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

---

138 .. رقمها : 213 , ص 260

* الوقرة ؛ بفتح الواو : ثقل في الأذن أو ذهاب السمع كله

* الفترات : الزمن بين النبوتين . وأقول أن ظاهر ما قاله الإمام : يعني أنّ العقل مصدر للإيمان بعد النبوة والرسالة فضلاً عن كونه وسيلة لإدراكه

139 في الكلام نفسه

* الفلوات ؛ جمع فلاة : الأرض الخالية

(فلم تشغلهم تجارة، ولا بيع عنه؛ يقطعون به أيام الحياة الدنيا، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط، ويأتمرون به، وينهون عن المنكر، ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنّما اطلعوا على غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها)

ولم يوقع هنا الإمام عليّ اطلاع الزّهاد والصالحين على الغيوب البرزخية، وأنهم خرجوا من الدنيا بلا موت إنما هي مجاز لانتقالهم بعقولهم أو فكرهم أو أرواحهم، وتعلقها هي ونية عملهم بالله تعالى؛ فإنّه (عليه السلام) أعمل قوله بـ(كأنّ) التي للتشبيه إعمالا معنوياً، وأعملها في قوله الذي تلا هذا في بيان حالهم ورؤيتهم ومجالسهم وأعمالهم ومحاسبتهم أنفسهم على كلّ صغيرة وكبيرة مما أمر الله تعالى به، ونهى عنه، حتى يحملون أنفسهم تبعات أي تقصير، ويلتجئون إلى الله بالنحيب والندم والاعتراف، فتخيلهم[140] الإمام أعلام هدى ومصابيح دجىً تحفهم الملائكة، وتفتح لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات؛ وهذه صور روحية و ودلالات لا تماثل ما تعوّدنا من مشاهدته في حياتنا الدنيا .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ؛ حتى أنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون، فلو مثلتهم لعقلك في مقامهم المحمودة ومجالسهم المشهودة وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كلّ صغيرة، وكبيرة أمروا بها، وقصّروا عنها، أو نهوا عنها، ففرّطوا فيها، وحمّلوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال بها فنشجوا* نشيجاً ، وتجاوبوا نحيباً يعجون* إلى ربهم من مقام ندم، واعتراف لرأيت أعلام هدىً ومصابيح دجىً قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات، في مقعد اطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم، وحمد مقامهم)

ولا شك أن تصوير الإمام عليّ (عليه السلام) لهؤلاء وحالهم نابع من إحساس عميق وتجربة صادقة مخلصة بسبب اندماج عقل الإمام عليّ (عليه السلام) وإحساسه بالقرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة على أكمل وجه وأتم عمل؛ فصار (عليه السلام) إمام كلّ سائر في طريق السعادة الأبدية .

[140] انظر نظرية الخيال في البلاغة والأدب من مراجعه .

وللكاتب القول ؛ أنّها نابعة من حبّ وشوق لهؤلاء أيضاً ؛ إذ صورهم (أعلام هدى ومصابيح دجى) وقد تاه، أو انحرف كثير ممن يحسبون عليه أتباعا فضلاً عن خصومه وأعدائه في ظلمات الفتنة ؛ حتى كادت الدولة الإسلامية التي أسسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تنهار، وتضيع آثار الكتاب والسنّة، و ينحرف الناس عنها نهائيّاً .

فلمّا صدم الإمام عليّ (عليه السلام) بخصومه وبتخاذل من حوله عن الجهاد ونصرة الحقّ ؛ طفق يتذكر المسلمين الأوائل في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المؤمنين حقاً، فصار يسأل عنهم سؤال من يأس من أتباعه متذكراً قبولهم للدّين وإيمانهم بالقرآن وأعمالهم وجهادهم في سبيل الله تعالى، فشبّهها بالساعين في اللقاح لأولادها من الإبل واصفاً دخولهم المعارك واستشهاد بعضهم وبقاء بعضهم الآخرين، ولم يؤثر ذلك فيهم؛ فلا يستبشرون ببقاء بعضهم ولا يتعزون بفراق بعضهم.

قال الإمام عليّ [141] (عليه السلام) :

(أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام، فقبلوه، وقرأوا القرآن، فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد، فولهوا اللقاح* إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً بعض من هلك، وبعض من نجا لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزّون بالموتى)

فإذا كان حالهم في الجهاد الأصغر كذلك فإن جهادهم الأكبر أو مع مظاهر الحياة الدنيا وملذاتها التي لا تشبع، ولا تنتهي فيصفهم الإمام عليّ (عليه السلام) وصفاً يبيّن مدى جهادهم العظيم لأنفسهم تجعل الكاتب يعترف بتقصيره الكبير وبعده عن طريق هؤلاء المؤمنين حقاً .

قال الإمام عليّ [142] (عليه السلام) :

(مُره* العيون من البكاء خُمص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين)

ويصل الإمام عليّ ليصور مدى الحاجة إليهم وهو على ما عليه من تخاذل وعداوة قلّ نظير لها، فشبّه حاجته إليهم بحاجة الظمآن إلى الماء دلالة على شدة الحاجة.

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

---

[141] من خطبة رقمها : 120 ص 139.

[142] من الخطبة نفسها .

* اللقاح : الإبل الحلوب .

* مره العيون : فسدت وابيض حماليقها .

* نشجوا : من النشيج صوت ترديد النّفس عند البكاء .

* يعجون : يصيحون وير فعون أصواتهم .

(أولئك إخواني الذاهبون، فحقّ لنا أن نظمأ إليهم، ونعض الأيدي على فراقهم ..)
ويلجأ الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) إلى ذكر خير البشر سيدنا محمد بن عبد الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء (عليهم الصلاة و السلام) مثلاً وأسوة حسنة يتأسى بها، فنقل، ووصف صوراً من حياتهم وعملهم؛ وهي تفيد البحث في تتبع أحوال الزاهدين في الحياة الدنيا من المثال الأعلى بشرياً لكنها قبل ذلك تجعل من له نفس لوّامة وعقل نظيف صاف يقف خجلاً من الله تعالى ومن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو على ما هو عليه من نعيم مقيم وترف دنيوي على ضعف إيمانه وقلّة عمله الصالح؛ وهذا حقّ فليس الترف والنعيم في الدنيا دلالة على رضى الله تعالى كيف ..! وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينل من زخرف الدنيا ومتاعها ما يناله أقل الناس من الزخرف والمتاع وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. والإمام علي (عليه السلام) يستند على هذا دليلاً على ذمها وعيبها ومساوئها و مخازيها التي تصيب الإنسان شاء أم أبى . وشبّه الإمام عليّ (عليه السلام) ترف الدنيا وتنزيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عنها بانقباض أطراف البساط عنه و وقوعها تحت قدمي غيره، وشبّه ذلك أيضاً بانفطام الطفل عن الرضاع دلالة على انتفاء حاجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها .

قال الإمام عليّ [143](عليه السلام) :

(ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذمّ الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها* إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها .)

وينتقل الإمام عليّ (عليه السلام) بأسلوب حواريّ إلى الأنبياء والرسل موسى وداوود وعيسى عليهم الصلاة والسلام يبيّن مظاهر تنزههم عن ترف الدنيا وزينتها المفرطة وسعيهم بالعمل في خدمة أنفسهم بلا تواكل على الآخرين واستغلالهم واكتفائهم بالطعام المسكت للجوع بلا شبع وهو شعير وبقل وما تنبت الأرض للبهائم .

قال الإمام عليّ (عليه السلام)

(وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : (ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) ، ولله ما سأله إلا خبزاً يأكله ؛ لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة بقلة

---

[143] ... رقمها 159 , ص 185.

* مساويها ؛ أصلها : مساوئها قلبت الهمزة ياءً على لغة أهل الحجاز .

الأرض ترى من شفيق صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه، وإن شئت ثلثت بداوود صلى الله عليه وسلم صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة ؛ فلقد كان يعمل سفائف[144]* الخوص بيده ويقول لجلسائه : أيّكم يكفيني بيعها ؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها .

وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام ؛ فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب[145]* ، وكان أدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله ؛ دابته رجلاه، وخادمه يداه .)

ويعود الإمام عليّ (عليه السلام) إلى ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم داعياً إلى إتباعه واصفاً هيئته الجسدية التي تنبئ عن حياته الدنيا ومعاملته لنفسه وبغضه لما أبغضه الله تعالى محذراً ؛ أنّ الذي يحب ما بغضه الله تعالى فهو في انشقاق عن أمر الله تعالى .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(فتأسّ بنبيك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله؛ فإنّ فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى، وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيّه والمقتص لأثره... قضم[146]* الدنيا قضماً، ولم يعرها طرفاً أهضم أهل الدنيا كشحاً[147]*، وأخمصهم من الدنيا بطناً؛ عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أنّ الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحقر شيئاً فحقره، وصغر شيئاً فصغره، ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله وتعظيمنا ما صغّر الله ورسوله.. لكفى به شقاقاً لله ومحادةً عن أمر الله !)

ويصف الإمام عليّ (عليه السلام) بعضاً من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته اليومية فقال (عليه السلام) :

(ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته، فتكون فيه تصاوير فيقول : (يا فلانة _ لإحدى زوجاته _ غيّبيه عنّي، فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا، وزخارفها) فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه

---

[144]* سفائف الخوص : أنسجته .

[145]* الجشب: الناشف .

[146]* القضم : الأكل بأطراف الأسنان : :أنه لم يأكل إلا بأطراف أسنانه ولم يملأ منها بطناً .

[147]* أهضم : خلو البطن من الطعام . الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي .

لكيلا يتخذ منها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه، و أن يذكره عنده .)

ويحتكم الإمام عليّ (عليه السلام) إلى العقل ومنطقه ؛ ليثبت أنّ الزهد في الحياة الدنيا أو عدم تحصيل ترفها وزينتها المسرفة دليل فضيلة كبرى ومقربة من الله تعالى ؛ إذ نزّه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك وهو أقرب الناس إلى الله تعالى وأحبهم إليه، فأكرمه بهذا التنزيه مما ترتب على ذلك أنّ عكس حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ أي لمن حلّ به الترف والزينة المسرفة في الحياة الدنيا يعني ذلك إهانة، وليس تفضيلاً.

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يدلك على مساوئ الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته؛ فلينظر ناظر بعقله؛ أكرم الله محمداً بذلك أم أهانه! فإن قال : أهانه ؛ فقد كذب _ والله العظيم _ بالإفك العظيم، وإن قال : أكرمه؛ فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب النّاس منه .)

ويعاود الإمام عليّ (عليه السلام) إلى تأكيد الدعوة إلى التأسي بالنبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنه حجة الله تعالى على خلقه بعثه تمهيداً لقيام الساعة و يوم الحساب يبشر بالجنّة لمن يستحقها، وينذر بالنّار لمن يقصر في مقتضيات ما استخلفه عليه الله تعالى في الأرض، ورسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد بيّن السلوك الصحيح في الحياة كما مرّ معنا سابقاً [148] ؛ كي يتبن به سبيل النجاة في الحياة الدنيا .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(فتأسى متأسٍ بنبيّه، واقتصّ أثره، وولج مولجه، وإلا.. فلا يأمن الهلكة؛ فإنّ الله جعل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم علماً للساعة ومبشراً بالجنّة ومنذراً بالعقوبة خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه؛ فما أعظم منّة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه، وقائداً نطأ عقبه، والله لقد رقّعت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها؛ ولقد قال لي قائل : ألا تنبذها عنك! فقلت : اغرب عني! فعند الصباح يحمد القوم السّرى)

---

[148] وأقول أنّ أساس ما سلكه سيدنا محمد صلى الله عليه و آله وسلم هو عدم الانجرار في الصراع على مظاهر الدنيا لأجل ذاتها بل جاهد وعمل لأجل إحقاق الحق وإبطال الباطل وهو في سبيل ذلك ولم يقبل أن ينغمس في متع الحياة الدنيا وكون مرحلته كانت صعبة المعيشة أيضاً فلم يقبل أن يتمتع بزيادة عن أقل الناس في عصره . ولكلّ عصر متعه وما نفهمه أن نسلك بأقل ما يمكن من المتع لحد إشباع الحاجة حصراً .

كان القول ذا تعبيراً عن خلق الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كما صرح به في آخر الخطبة ليعلم المستمعون أو المتلقون أنّه لا يقول بقول ليس له أكبر النصيب من تطبيقه .

وقد يقول القائل أنّ تلك لأمثلة تكاد تكون صعبة الامتثال بها فإنّ واقع الإنسانية أضعف من الأنبياء والرسل المعصومين من دنس الذنوب والخطايا عدا عن انغماسها في طلب مظاهر الحياة الدنيا.. والإمام عليّ (عليه السلام) يعرف هذا، وخاطب الناس، ودعاهم وفق سجيتهم التي تستطيع -إن أراد الإنسان- أن تصبر على عدم اقتراف المحارم التي هي قليلة أمام الكثير من الحلال والنعم التي يتقلب فيها الإنسان وعند تذكره حجج الله تعالى وهم الأنبياء و المرسلون وكتبه والصالحون السائرون على صراط الله المستقيم ؛ لذا عرّف الإمام علي (عليه السلام) الزهد بما يعطيها الفائدة، وبما لا تفوق طاقة عامة الناس .

فقال[149] (عليه السلام) :

(أيها الناس:

الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النّعم، والتورّع عن المحارم، فإن عزب عنكم فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة ظاهرة وكتب بارزة العذر واضحة)

ولنبحث في معاني ما بيّن الإمام عليّ (عليه السلام) من المصطلحات التي قد يتلبس على البعض المقصود منها، أو لا يضعها بالمقصد التام .

فالأمل هو ما يترجاه، أو ينتظره الإنسان في حياته[150] ، و الشكر هو الاقتناع بما أنعم الله تعالى على الإنسان، وليس شكره باللسان، فحسب، وقيل (وبالشكر تدوم النعم)، وذلك إذا اطمأنّ الإنسان بما حلّ به من نعمة، فلم يطمع إلى أكثر، ولم يمد نظره، ويعلق قلبه بما أنعم الله تعالى على غيره، أو كان غيره أكثر ترفاً أو نعمة، فطمع بأن يكون على شاكلته، فذلك يعني جحداً بالنعمة التي هو فيها، فيفقدها من ساعته، وإن بقيت معه؛ فهو غير راضٍ بها أصلاً ؛ أي أنّه يفقد الاطمئنان بها، وبالمقابل الذي ارتضى بما أنعم الله تعالى عليه، فلم يمدّ نظره، أو يعلّق قلبه بما هو زائد , فإنّه يستمتع بالذي عنده .

---

[149] من كلام رقمه : 80 , ص 73

[150] ورد شيء من الشرح لهذا المصطلح في المبحث التالي , زاد الحياة الدنيا أو العمل .

ويبقى القول أنّ الحكمة الإسلامية في الدعوة إلى الزهد، والاكتفاء بإشباع الحاجة هو تمرين وتدريب للنفس على الفضيلة والسيطرة على شهواتها واندفاعاتها غير المحمودة في سبيل الإشباع المفقود أصلاً، و الإنسان يستطيع أن يتأمل نفسه، ويجد أنّه كلما يطيع رغباتها وما تشتهيه.. تطلب النفس الأكثر، ويصعب مع ذلك السيطرة عليها وتوجيهها نحو الحقّ والقبول به والدفاع عنه وعدم الاعتداء على أصحاب الحقوق أو سلبها منهم.. و ورد قول الله تعالى في كتابه العزيز : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) سورة الشمس الآية: 9و10 , وقال الإمام عليّ (عليه السلام) : (من عرف نفسه فقد عرف ربه) والزهد أو تدريب النفس دليل معرفتها .

ونستخلص مما بحث :

- أنّ الزاهدين مظهر من مظاهر الإنسانية في الحياة الدنيا، ويبيّن تقلب واختلاف أو تناقض الحالة الإنسانية في هذه الحياة ما بين مغرور وزاهد .
- أنّ الزهد الحقيقي في الحالة الإنسانية دافعه الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ودوام الذكر لله تعالى[151] .
- أنّ الزهد المتمكن جعل صاحبه يكتشف حقائق الكون و الإنسان، وقد يصل إلى درجة يتلقى فيها الهامات الله تعالى.
- أنّ الزّهاد وعلى رأسهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ دلائل للبشر في طريق الحق والخير وهم حجة عليها أيضاً .
- أن الزهد ليس حرماناً من حلال الله تعالى والزينة المعتدلة، بل هو كما عرّفه الإمام عليّ (عليه السلام) بأنّه في أدنى حالاته ترك الحرام والشكر والرضى بالحلال .

مبحث زاد الحياة الدنيا أو العمل :

والتحدث عن الزاهدين والزهد - وهو مسلك عزيز في الحياة - يستلزم البحث في سلوك الإنسان أو أعماله في الحياة الدنيا، وهي مختلفة في الأشكال والغايات .

---

[151] ذكر الله تعالى يشمل كلّ أنواع العبادات المفروضة والنافلة وقراءة القرآن والاشتغال بالعلوم الإسلامية وذكر الأنبياء والأولياء وتنفيذ شرع الله تعالى على كلّ مسلك والتفكير بخلق الله تعالى مع التذكر بأنها مخلوقاته وتدلّ على عظمته .

فالحلقة الثالثة التي كان يطرحها الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في خطابه في قضية الحياة الدنيا بعد التحذير من فناء الحياة الدنيا والتعلق المغرور بها وتصوير أو وصف أحوال الناس فيها .. هي عمل الإنسان في الحياة الدنيا على قاعدة العقيدة الإسلامية، وكما قيّمت الحياة الدنيا بأنها دار ممر لا دار مقر، و أنها دار عمل لتحصيل النتائج والجزاء في الحياة الآخرة القادمة (الدنيا مزرعة الآخرة) .

فكان لعمل وسلوك الإنسان في الحياة الدنيا وفق هذه الحقيقة الواقعة من الله تعالى كما ورد في رسالاته التي حملها أنبياؤه ورسله وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالة القرآن الكريم... منهج يوافق الحقيقة هذه.. وغايةً تنتهي إليها؛ وقد دعا الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) إلى هذا المنهج في كثير من خطبه إلى جانب التحذير من فناء الحياة الدنيا ووصف حال الإنسان فيها ؛ كي يعطي دعوة كاملة شاملة لها مبرراتها، وحججها الصحيحة .

ففي خطبة له (عليه السلام) يذكر واقع الدنيا الفاني والمدبر وإقبال الآخرة وطلوعها، وعلى ذلك بنى صورة شبّه فيها الحياة الدنيا بمضمار السباق ؛ أي المكان الذي يستعد فيه للسباق؛ والجنّة هي السُبقة أي المطلوب الوصول إليها تسابقاً وتنافساً ، والنار هي الغاية الحتمية لمن قصّر في السباق أو أخطأ السبقة .

قال الإمام عليّ [152] (عليه السلام) :

(أمّا بعد فإنّ الدنيا أدبرت، وآذنت بوداع، وإنّ الآخرة أقبلت، وأشرفت باطلاع.. ألا وأنّ اليوم المضمار، وغداً السباق؛ و السبقة الجنة، والغاية النار)

وبنى على هذا التصوير المبدع دعوته بصيغة السؤال للتوبة من الخطايا قبل الموت، وهذه نظرة مراعية لحال الإنسانية، واتبعها بالدعوة إلى العمل النافع للوصول إلى الجنة بصيغة السؤال أيضاً .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ألا عامل لنفسه قبل بؤسه)

ويعود الإمام عليّ (عليه السلام) إلى أسلوب الخبر عن الحياة الدنيا ؛ بأنها دار الآمال التي تنتاب الإنسان في هذه الحياة، وأنّ وراء هذه الحياة مصير سينتهي إليه الإنسان؛ ويتحدد نفع هذا المصير

[152] في خطبة رقمها : 28 , ص 36.

أو ضرره بما يعمله الإنسان ؛ ليبني عليها صيغة شرط تبيانا لفائدة العمل في الحياة الدنيا لغاية الجنّة الفائدة الحتمية التي تتضمن في أسلوب الشرط كالمقدمة والنتيجة .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل , فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد نفعه عمله، ولم يضرره أجله، و من قصّر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله، وضرّه أجله)

ويعود الإمام عليّ (عليه السلام) إلى أسلوب الأمر المباشر بالعمل رغبة في نعيم الله تعالى وفضله ورضاه كما العمل خوفاً , و رهبة من عذابه , وسخطه , ويبدع الإمام عليّ (عليه السلام) صورةً جذّابة تقوم على صورة الجنة استناداً لما تحمله هذه اللفظة من صور الرخاء والنعيم الأبدي التي وصفها الله جلّ جلاله في القران الكريم، وصورة من يطلبها بطبعه نائماً عن العمل والسعي الحثيث في سبيلها، وكذا صورة النار استناداً إلى ما تحمله هذه اللفظة من صور العذاب والألم الشديد الذي وصفه الله تعالى في كتابه العزيز أيضاً وصورة من يهرب، أو ينفر منها بطبعه وهو نائم عن العمل والسعي للهرب والتخلص منها.

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(ألا لم أر كالجنة نام طالبها، و لا كالنّار نام هاربها)

ويعود الإمام عليّ إلى أسلوب الشرط منبئاً بحقيقة وجود طريقين لا ثالث لهما أمام الإنسان في الحياة الدنيا ؛ طريق الحق فمن ترك طلب النفع من الحق وقع في طريق الباطل، فحلّ به الضرر ونحن بني آدم راحلون بغير إرادتنا وقد عُرف الحق من الباطل وعُرف زاد رحلتنا الذي هو الاستقامة على ما أمر الله به، ويختتم الإمام (عليه السلام) قوله بتخوفه من إتباع الهوى وطول الأمل بما يجعلنا ننحرف عن الزاد الصالح إلى ما هو مضرّ مكرراً دعوته للتزود من هذه الحياة لما بعدها من حياة الآخرة.

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى، ألا و إنّكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد، وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : إتباع الهوى وطول الأمل، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً)

والهوى : هو ما يحبه الإنسان، ويتعلق به دون أيّ اعتبار بخير هذا المحبوب أو شرّه ، فإنّ الهوى لا يفرّق بين حقٍ أو باطلٍ وخيرٍ أو شرٍّ، فكثير من أفعال المنحرفين والظالمين إنما يتحكم فيها

إتباع الهوى في أمور تتعلق بنفس الإنسان وبمن حوله، فإذا وقع في موقع يلام على فعل أو توجبت عليه تبعة أو إزالة اعتداء يكون رد فعله ما يوافق هواه بعيداً عن أيّ مشقة أو حيف أو حساب عليها، وكذلك علاقته بمن حوله؛ فهو إذا كان بجانب فئة دون غيرها صار معها في الحقّ والباطل وفي الظلم والتعدي ..

فهواه مع قبيلته دون النظر لأيّ اعتبارات العدالة والحقوق .. وكان هذا حال معظم العرب الجاهليين بتعصّبهم المقيت الذي جرّ عليهم ويلات التقاتل والتدابر حتى بين الأقارب، وهذا ينسحب على كلّ منتمٍ إلى طائفة أو حزب أو قومية .. يجعل هواه هو الفيصل في مواقفه الاجتماعية وغيرها .. لذا قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(فأمّا الهوى فيصدّ عن الحقّ، وطول الأمل فينسي الآخرة)

والأمل هو الطلبة وانتظار المحبوب من الأشياء حتى قال الشاعر :

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

والإمام عليّ (عليه السلام) حذّر من أن تطول هذه الفسحة لتتحول إلى مذهب في الحياة متعلقة بمظاهرها، وتطلبها بأعمالها، فينسى صاحبها الآخرة في عمله ونيته يتأمل الغنى والترف، أو التسلط والتجبّر على الآخرين والاعتداء عليهم والسمعة أو الشهرة بين الناس في أعماله وسلوكه العام والديني.. والعياذ بالله تعالى .

والزاد الذي دللنا عليه، وهو في الأصل اللغوي الشائع يعني الطعام اللازم للجسد، وقد استعيرت للاستدلال على غذاء أو ذخيرة تفيد المرء روحاً و جسداً في حياته الدنيوية وحياته الآخروية. و قال الله : (وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى يا أولي الألباب) سورة البقرة الآية: 197.

وقال الإمام عليّ [153] (عليه السلام) :

أوصيكم بتقوى الله التي هي الزاد، وبها المعاد زاد مبلغ، ومعاد منجح دعا إليها أسمع داع ووعاها خير واع، فأسمع داعيها، وفاز واعيها)

ويعرف الإمام عليّ (عليه السلام) التقوى بأنها احتماء الأولياء من محارم الله و التزام قلوبهم مخافته لدرجة أنّهم صاروا يسهرون على التواصل مع الله تعالى، وفي النهار يتواصلون بالصيام، فهم أحسوا باقتراب الأجل، فكانوا عاملين لما يستوجب هذا الأجل من عمل صالح وعدم الانجرار مع الآمال الدنيوية الزائلة.

---

[153] في خطبة ؛ رقمها : 113 , ص 132

فقال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(عباد الله إنّ تقوى الله حمت أولياء الله محارمه وألزمت قلوبهم مخافته حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب والريّ بالظمأ، واستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل) [154] .

نلاحظ إسناد الإمام عليّ (عليه السلام) الحماية والإلزام، و ما تلاهما إلى التقوى، وأراها دلالة على أنه لا عمل للولي حتى يكون ولياً ويبقى على صلة بالله تعالى إلا بالتقوى .

والعمل بالتقوى عمل جاد مجتهد ؛ هدفه رضى الله تعالى لا تحقيق مظاهر الحياة الدنيا فحسب أيّ أنّ العمل الدنيوي هو زاد وذخر للآخرة لا للذات الحياة الدنيا التي لا تشبع، ولا تنتهي إلا بالموت بعد كلّ الجهود المضنية في السعي لها، ويكفي هذا حجة عند الإمام للعمل لغاية الآخرة؛ فلا مقام لنا في الحياة الدنيا، فينبهنا الإمام عليّ (عليه السلام) إلى رؤية الذين هم أسرى الأمل بتحقيق الرغبات التي هي في اطراد دائم فتكون بعيدة المنال والإشباع وهم يبنون البنايات الضخمة، ويجمعون المال الكثير عندما ينزل بهم الموت، فيضيع كلّ ذلك من أيديهم، فيكون القبر بيتاً لهم بدلاً من القصر، وما جمعوه من مال يصير غنيمة للوارثين، وأزواجهم لرجال آخرين، وهم في موتهم لا يحصلون على حسنة، و لا يقترفون ذنباً لأنهم صاروا في عالم الانتظار ليوم الحساب من الله تعالى.

لذا فالإمام عليّ (عليه السلام) يدعوا إلى أن نكون على حال العجلة والاستعداد للسفر كمن يستعد ويعد الراحلة للفراق .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(أما رأيتم الذين يأملون بعيداً ويبنون مشيداً، ويجمعون كثيراً! كيف أصبحت بيوتهم قبوراً! وما جمعوا بوراً، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين! لا في حسنة يزيدون، ولا من سيئة يستعتبون، فمن أشعر قلبه برّز مهله[155]*، وفاز عمله فاهتبلوا[156]* هبلها، واعملوا للجنة عملها؛ فإنّ الدنيا لم تخلق لكم دار مقام، بل خلقت لكم مجازاً لتزودوا منها الأعمال إلى دار القرار، فكونوا منها على أوفاز[157]*، وقرّبوا الظهور للزيّال[158])[159]*

---

[154] نفس الخطبة

[155]* المهل : شوط الفرس . والمراد التقدم في الخير .

[156]* اهتبل الصيد : طلبه .

[157]* أوفاز : جمع وفز بسكون الفاء وحركتها أيضاً وهو العجلة .

[158]* الظهور : المراكب . الزيّال : الفراق .

[159] .. رقمها : 132 , ص : 153.

وقد يقع البعض في التباس بأنّ العمل للآخرة يناقض العمل الدنيوي، ويقتضي تركه؛ وما سبق من قول الإمام (عليه السلام) يحمل معادلة بأن يعمل الإنسان في الحياة الدنيا لأجل الآخرة؛ فهل يعني ذلك ثنائية في العمل ؟ أي عمل خاص بالآخرة، وآخر خاص بالحياة الدنيا؛ وكلاهما متعارض، فلا بدّ للإنسان أن يختار أحدهما! أم يمكن جمعهما! فالصلاة مثلاً عمل للآخرة، والتجارة عمل للدنيا، ولكلّ عمل وقته! .

لكن ما وضّحه الإمام عليّ (عليه السلام) بأن الدنيا دار مجاز لنتزود منها بالأعمال إلى دار القرار في الآخرة قد يلتبس معنى أنّ على الإنسان تقديم الصلاة ورفض التجارة .

والحق أنّ شريعة الله تعالى ما كانت تحرّم التجارة بالمطلق، وأيّ عمل متعلق بمظاهر الحياة الدنيا، وإنّما شرّعَ الله تعالى تلك الأعمال وفق قواعد وغايات تنتهي إلى الحياة الآخرة ؛ أيّ أنّ العمل الدنيوي في كلّ أشكاله ومواطنه هو عمل للحياة الآخرة أيضاً ما دام يخضع، ويراعي شريعة الله تعالى، ولا يطغى على الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد .

والحق أنّ الفرائض هي الأخرى أعمال دنيوية ؛ إنّما هي عبادات مشروعة للتواصل مع الله تعالى بالشعور والعقل و الروح و الجسد حتى يضمن الإنسان البعد عن الفحشاء والمنكر في حياته وأعماله الدنيوية، وكما ورد (من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر , فلا صلاة له) .

لذلك فإنّ الدنيا محمودة عند من يعمل فيها صالحاً ويعبد الله بإخلاص، ويجني منها في الآخرة ثواب أعماله في الدنيا؛ الأعمال الصالحة الملتزمة بالشريعة هذا ما بيّنه الإمام عليّ (عليه السلام) في فائدة الدنيا وجزاء العمل الصالح فيها بقوله[160] :

(إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها ؛ مسجد أحبّاء الله ومصلّى ملائكة الله ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله ؛ اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنّة)

إلى أن يبيّن أنّ الذين يذمّون الدنيا هم النادمون على أعمالهم فيها بغير الحقّ وبغير رضى الله، ويحمدها الحامدون العاملون فيها بالحقّ ورضى الله تعالى . قال عليه السلام : (فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة)

---

[160] 146 حكمة رقم 126 ص 420.

ونجد ما يبيّن أنّ الإنسان بكل أعماله وأمواله يستطيع بها أن يسير في طريق رضى الله تعالى وتحصيل جزائه الحسن العظيم في الآخرة فيما قاله الإمام عليّ عليه السلام إذ دخل على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده، فلمّا رأى سعة داره قال :

(ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا! أنت إليها في الآخرة كنت أحوج! وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة ؛ تقري الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة .

فقال العلاء : يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد . قال : ما له ؟ قال : لبس العباءة، وتخلى عن الدنيا . قال : عليّ به . فلمّا جاء قال :

يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث . أما رحمت أهلك وولدك! أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها! أنت أهون على الله من ذلك .

قال : يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك . قال : ويحك إني لست كأنت إنّ الله فرض على أئمّة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره)[161]

والإمام عليّ (عليه السلام) في خطبه إنّما يحذر من نسيان العبودية لله تعالى، و يحذّر من التعلق بالحياة الدنيا والخضوع لمظاهرها المختلفة ؛ إنّه حاول اجتثاث ذلك التعلق والخضوع من نفوس أصحابه ومستمعيه فيحققون تلك المعادلة للمتقين من تعلق ظاهري بدني بالحياة الدنيا مع معرفتهم أنها طريق إلى الحياة الآخرة الخالدة الموعودون فيه بنعيم لا عهد لهم به.. وقد عبّر الإمام عليّ (عليه السلام) بهذه المعادلة بالمقارنة بين المتقي والمغرور بالحياة الدنيا؛ فشبّه المغرور بالأعمى الذي لا يرى من الحياة إلا دنياه ومظاهرها الزائلة المتحولة وهو واحد منها، ويشبّه الذي يوقن أنّ الحياة لها كرّةً أخرى خالدة بالبصير . فالأعمى يتوقف بصره على ظاهر الحياة الدنيا لذا فهو أعمى.. فيعمل لهذا الظاهر، والبصير ينفذ بصره إلى أنّ وراء الدنيا الحياة الخالدة؛ فيعمل لأجل تلك الحياة .

قال (عليه السلام) :

(إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر ما وراءها شيئاُ، والبصير ينفذها ببصره، ويعلم أنّ الدار وراءها؛ فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود، والأعمى إليها متزود)[162]

---

[161].. رقمها 200 , ص : 243 تبيّغ : تهيّج وخرج .

[162] .. رقمها 133 ,ص : 153.

فالبصيرة في الحياة الدنيا هي الفكر الثاقب الذي مصدره الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله والأئمة الذين هم واسطة التبليغ والخطاب الرباني إلى العباد، وهو جلّ جلاله الذي نبئنا باليوم الآخر والحساب، ودعانا لتذكره في أعمالنا الدنيوية، فنندفع في العمل أو التزود في سبيل الادخار والاستعداد لتحصيل جزائه في اليوم الآخر بما يوافق فطرتنا بتعلقها بمظاهر ذلك النعيم الموصوف في القرآن الكريم من طعام طيب وشراب عذب و حور عين .

ويوجد مستوى أعلى وأرفع في طرف المعادلة الثاني وهو حب الله تعالى والتلذذ بنعيم لقائه في الآخرة ؛ أي يصبح هم البصير المؤمن التقي في الحياة الدنيا ليس نعيماً موقوفاً على مظاهر فطرية في الآخرة، بل لقاء الله تعالى والاقتراب منه، وتلقّي بركاته ورحمته والتنعّم باللقاء الذي عبرّ عنه البعض بكلمات ساء فهمها من مثل التوحّد والفناء وهي كلمات مجازية تريد أن تعبّر عن مدى حبّ الإنسان لله تعالى وتعلقه العقلي والقلبي والسلوكي وليس حقيقة كما لا يخفى على كلّ عالم باللغة وأساليبها ..[163] *

وقد عبّر الإمام علي (عليه السلام) عن هذا المستوى الأعلى في دعائه الذي لقنه لكميل بن زياد النخعي، وكان تعبيراً صادقاً متدفقاً من إحساس وشعور وقادٍ بالإيمان و العقيدة الإسلامية تحوّل لحبّ وتعلّق خالص بالله تعالى .

بكلمات حارة مشتاقة ملتاعة إلى الله تعالى ؛ فيها الاستسلام الكامل التام والثقة الخالصة بالله تعالى وعفوه ورحمته ..

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(فلئن صيرتني للعقوبات مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أعدائك، وجمعت بيني وبين بلائك مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أهل بلائك، وفرّقت بيني وبين أحبّائك وأوليائك .

فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك! وهبني صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك! أم كيف اسكن في النّار ورجائي عفوك! فبعزّتك

---

[163]* فمثال بسيط لا يخفى على أحد قد يبيّن ما قلته فإنك تجد من يحبّ أحداً من المقربين يقول له على سبيل إعلامه بحبه له : (يا عيني أو يا روحي أو كما ورد عن الشعراء الهيّام من كلمات تصف المحبوب بحياته و بهوائه الذي يتنفس به وغير ذلك مما هو تعبير لغويّ ليس على الحقيقة في المقصد إنّما المقصد هو التعبير عن مدى التعلق والخلوص بالموصوف وكذلك الذي خلص إلى الله جلّ جلاله وافترق عن كلّ ما سواه من خلقه حتى نفسه التي بين جنبيه عقلاً وشعوراً وسلوكاً يصل به التعبير إلى ما يصل= به= من كلمات الفناء والتوحد هي مجاز ليست حقيقة واقعة يحلّ فيها الإنسان بالخالق جلّ الخالق العظيم أن يحلّ به أحد من خلقه أو هو يحلّ بهم . ويبقى الأمر ذوق يتلقاها الأصحاء من الناس . والله العالم .

يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين ..)[164]

انظر كيف الخلوص التام غير المتعلق بمظاهر فطرية إذ صارت نار جهنّم التي ينفر منها كلّ إنسان بطبعه مكان ازدياد طاقة العشق والمحبّة الإنسانية لله تعالى، ودلالة تعدد وتتالي النداء لله تعالى ب(يا إلهي و سيدي ومولاي وربي) على مدى الحالة الصادقة المخلصة المستسلمة لله تعالى .

ودلالة قوله (هبني صبرت على حرّ نارك) على مدى الطاقة الحرارية لحبّ الإمام عليّ لله تعالى التي تفوق حرارة نار جهنّم .

حقاً من يطّلع على هذا الكلام المخلص الصادق الصدوق يعرف مدى التقصير الذي نعاني منه! فالإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) الذي هو المؤمن الكامل والمجاهد الأكبر في الإسلام وأفضل الأمة من بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقول، ويسمو بهذا! أجل فحريّ بالإمام عليّ (عليه السلام) وهو على ما عليه أن يقول مثل هذا القول، وقد انكشف له الغطاء، وعرف الله حق المعرفة، بل هو وليّ الله بنص القرآن الكريم وقول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى (إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) سورة المائدة الآية:55 .

واتفق أهل التفسير والسير بأنّ الذي تصدّق وهو راكع في الصلاة هو سيدنا عليّ فنزلت هذه الآية في حقه (عليه السلام)

وقول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حادثة غدير خم المتواتر في الأمة:

(من كنت مولاه فعلي مولاه.. اللهم والي من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله)

نستخلص بأن الإمام عليّ كان مثال المعادلة العليا للإنسانية في حياتها وتحقيق هذه المعادلة سواءً على مستوى الرغبة أو الرهبة من الله تعالى في العمل الآخرة، أو على مستوى الحبّ أو العشق لله تعالى في العمل والخضوع والعبادة يحتاجان لجهاد للنفس للوصول إلى هذا المستوى؛ وأول ما يتطلبه ذلك الإيمان القويّ الراسخ في النفس والإرادة الصلبة والعزيمة القوية وهذا ما يوضح لنا واقع الإنسانية في الحياة الدنيا؛ فهي لا تستطيع بكليتها أن تستقيم على هذه المعادلة، بل ما صرّحه الإمام عليّ (عليه السلام) بقوله عن البصير في الحياة الدنيا لازمه وقارنه بالأعمى الذي لا يحقق

[164] مؤسسة الوفاء , دعاء كميل , ص : 15

تلك المعادلة، وإنّما معادلة معاكسة تقوم على طرف : بأن الإنسان غير المؤمن بالله تعالى أو باليوم الآخر هو أعمى نظر إلى الحياة الدنيا، ولم يتفكّر بما سيكون مصيرها إلى الزوال، ومن ثمّ توقع عودتها إلى القيام أمام خالقها ليحاسب أفرادها من بني آدم على أعمالهم السالفة، وطرفها الثاني : أنه صار يعمل، ويتزود من الدنيا لحياته الدنيا.. أي هدفه تحقيق مظاهرها لأجل حياته الدنيوية فحسب .
فعمل الإنسان وسلوكه العام يقوم على أصل إيمانه وعقيدته في الحياة سواءٌ مؤمنة بالله أم كافرة .
والحقّ أنّ الإمام عليّ عليه السلام ينظر إلى الحياة الدنيا والإنسان نظرة مطلقة في اتجاهين إيمان وعمل صالح، أو كفر وعمل طالح؛ لكنّه يراعي أيضاً واقع الناس المؤمنين المتأرجح بين أعمالٍ صالحة و عمل طالح مع عقيدتهم الإسلامية إذ هو في كلمة له ينتقد، ويأخذ فيها على الذين يعيبون الآخرين لذنوبٍ أو انحرافٍ عن الشريعة قد يكون عابراً غير أصيلٍ والله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيمٌ تسع رحمته الخلق كلهم .. والذي يجعل من نفسه عائباً لأهل الذنوب قد يكون وقع في ذنب أعظمٍ.
قال الإمام عليّ (عليه السلام) :
(وينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عندهم .
فكيف بالعائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه! أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به! وكيف يذمه بذنبٍ قد ركب مثله! فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه، فقد عصى الله فيما سواه مما هو أعظم منه؛ وأيم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أكبر .
يا عبد الله لا تعجل في غيب أحد بذنبه فلعلّه مغفورٌ له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه .
فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلا له على معافاته ممّا ابتلي به غيره)[165]
إذن الاستقامة التامة الفعلية لا تتحقق عند الكثيرين؛ فليس ذلك خروجاً عن الدين وعن العقيدة الإسلامية . والإنسان المؤمن قد يذنب، ويعصي لكن له فضل الإيمان، وباب الاستغفار مفتوح أمامه، ولا تبعة عليه إن تاب، وأعاد الحقوق لأصحابها عند الله تعالى . هذه النسبية في سلوك الإنسان له أصل مطلق هو العقيدة، فبدون العقيدة لا تكون نسبية في السلوك والحقّ أنّ الإمام عليّ (عليه السلام

[165] .. رقمها : 140 , ص : 159

) تعامل بالمطلق من جهة العقيدة والفكر المتحكم في سلوك الإنسان طبعاً . لكنّه راعى النسبية من جهة السلوك الذي يتعرض لظروف قد يتورط الإنسان فيها إلى الانحراف، ومادام مؤمناً فإنّه ترجى توبته واستغفاره؛ وهذا كنه العبودية لله تعالى وواقع ما حصل لأبينا أدم فما ذهب إليه الإمام عليّ (عليه السلام) له أصل إسلاميّ ظاهر وجليّ .

وبعد هذا العرض الوجيز نستطيع أن نحدد زاد الحياة الدنيا :

بأنّه العمل في الحياة الدنيا لأجل الآخرة هذا العمل لا يتوقف على عبادات أو أفعال مخصوصة مفروضة؛ وإنمّا يشمل كلّ نشاط وسلوك إنسانيّ؛ مادام يستند على قاعدة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر؛ والعمل على هذه القاعدة يعنى بالضرورة التزام ما احلّ الله تعالى واجتناب ما حرّمه؛ وعند تعارض أيّ من الأعمال الملتزمة بالشريعة مع مصالح دنيوية فالواجب تقديم العمل الملتزم؛ وإلى هذا أشار الإمام عليّ عليه السلام عندما دعا إلى الكفاف من الرزق وعدم بيع الدين بالدنيا والصبر على المكاره والدوافع الشهوانية المنحرفة منها؛ فإنّ الإيمان بالله تعالى ينير ذهن الإنسان، ويوجّه سلوكه؛ فلا يبيع ما يبقى لما يزول .

قال الإمام عليّ (عليه السلام) :

(وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم إليها، وانصرفوا بقلوبكم عنها، و لا يخنن[166]* أحدكم خنين الأمة على ما زوي عنه منها، واستتموا نعمة الله عليكم بالصبر على طاعة الله والمحافظة على ما استحفظكم من كتابه؛ ألا وإنّه لا يضركم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم؛ ألا وإنّه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم؛ أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحقّ، وألهمنا وإيّاكم الصبر)[167]

والصبر له مكانة كبرى في الإسلام والإمام عليّ (عليه السلام) جعله أو صوّره بصورة رأس للإيمان؛ فلا جسد بلا رأس، ولا إيمان بلا صبر .

وهو حلّ وملجأ إنسانيّ من كلّ الوساوس النفسية والشيطانية تجاه مظاهر الحياة الدنيا المغرية التي تتعدّى الحاجات الفطرية إلى الملذّات والرغبات المصطنعة في المجتمع الإنساني من مثل الجاه والتسلّط والرياء والشهرة وجمع الأموال لحدّ التخمة وبلا شبع .

[166]* الخنين : ضرب من البكاء يردد به الصوت في الأنف . يشبه الإمام الذي يحزن على فقدان شيء من عرض الدنيا ببكاء الأمة دلالة على شدة حزنه وتعلقه بالمفقود . زوي : قبض .

[167] .. رقمها : 173 , ص : 204.

والحقّ أنّ الصبر سجية إنسانية مفطورٌ عليها كلّ فرد؛ وإنّ أيّاً منّا يستطيع أن يشعر بهذه السجيّة عند أمور محبوبة يريدها، ولا يحصّلها إلا بعد صبر وعمل؛ وكما في الأمور المكروهة فلا يتخلص منها إلا بصبر.

وهذا يبين أن منهج الإسلام يتعامل مع فطرة الإنسان، وينمّي سجاياه، ويوجهها نحو الخير وأهمّها الصبر الذي ينمّيه الإسلام لدرجات عالية من القوّة لتربية الإنسان القويّ إيماناً وصبراً وعزيمة .

والإمام عليّ (عليه السلام) هو خير من ربّاه الإسلام، فجعله قدوة إنسانيّة من غير الأنبياء للناس. ولمّا كان الصبر سجيّة ملازمة للعمل الإنساني في الحياة الدنيا فإنّ الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) يراها ملجأ من الوقوع في المحرمات والانحرافات وللاستقامة على الشريعة بعدما تطبّع هو بالصبر المؤصّل بالإيمان والمسلح بالشريعة والمغذى بالقرآن الكريم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله .

ولعلّ من أوجز كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأبلغها معنى قوله : (فإنّ الغاية أمامكم، وإنّ ورائكم الساعة تحدوكم، تخفّفوا تلحقوا؛ فإنّما ينتظر بأولكم آخركم .)[168] دلالة على ما يكون به النجاة والعمل في الدنيا؛ فالتأمّل في قوله (عليه السلام) (تخفّفوا تلحقوا) يوضّح أنّ الإنسان في الدنيا فرصته أن يتخفّف من أوزارها مثلاً صاحب الأموال الكثيرة والمكتنزة هو على خطر عظيم لأن تكون هذه الأموال بعد موته وفي قبره وفي يوم الحساب عذاباً شديداً؛ إذا لم ينفقها في وجوه الخير، ومنع الحقوق التي فرضها الله على أمواله، بل أكثر.. تجد الإمام عليه السلام يقول (تخفّفوا) يعني محاولة للتخلص من وزر الأموال المكتنزة والمدخرة في الدنيا بإنفاقها لسد حاجات الفقراء والمحتاجين حتى بعد أداء فرائض الله جلّ جلاله من زكاة أو خمس؛ فيضيف إليها الصدقات والهبات على أقصى المستطاع من وقاية النفس من شحّها . كم سيكون الثواب جزيلاً وعظيماً إذا أنفق الغنيّ أكثر من ربع ماله ! والأقربون أولى بالمعروف؛ فكم هي خسارة وذنب الثريّ أو الغنيّ كبيرة إذا كان أرحامه فقراء أو أهل بلدته، ولا ينفق عليهم ! وأفضل الإنفاق يكون على الأبوين والزوجة والأولاد والأخوات والأخوة وكذا الأقرباء والجيران وأهل البلدة؛ نحو قوله تبارك وتعالى : (قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) سورة البقرة آية 215 .. وللإمام عليّ عليه السلام قول معناه ؛ لو استطعت أن تعين فقيراً، وتحمله من مالك، فيكون هذا العمل له ثواب جزيل أنت بأمسّ الحاجة إليه يوم القيامة .

---

[168] 151 من الخطبة 21, ص 29.

ويمكن حمل معنى آخر من قوله عليه السلام (تخفّفوا تلحقوا) وهو أن لا يسعى الإنسان في حياته إلى اكتناز وجمع الأموال والسعي إلى الجاه وتكوين كيان وحاشية والإكثار من الأبنية والأطيان وغير ذلك من الأثقال الدنيوية؛ وإنّما يسعى الإنسان إلى قضاء حاجاته وحاجات من هو مسؤول عنهم، وإن سنحت الفرصة أن يخدم المجتمع والمؤمنين، فيبتغي بها ثواب الله وإحسانه لا التطاول والتفاخر.. ومعنى أخر؛ وهو التخفيف من كثرة الذنوب والمعاصي، ويكون بالعبادة , والذكر ومجاهدة النفس والاستغفار وحملها على الإنفاق من فاضل المال .

وبعد هذه الرحلة القصيرة في خطب الإمام عليّ عليه السلام التي أفصحت عن إيمانه بحقيقة فناء الحياة الدنيا، وما يتبن من تحول وفناء مظاهرها وأجزائها من دلائل ذلك.

وتأمّله في أحوال الناس الذي كان ما بين مؤمن وكافر وصالح وطالح، وأنّ أحوالهم جميعاً غير مستقرة سواءٌ في أنفسهم ما بين السرو والحزن أو في أجسادهم ما بين الصحة والسقم وكذا حال المجتمع الإنسانيّ، وأفصحت عن دعوته للزهد والتقوى والصبر والعمل الصالح المقوّم على الشريعة حتى يبلغ الإنسان الآخرة بما يحسن به لقاء وحساب الله تعالى له .

وكلّ ذلك بيّن أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قيّم الحياة الدنيا، وأبان عن المنهج العملي، وحدد الهدف في الحياة الدنيا .

وهذا التقييم والمنهج والهدف يتطابق مع رسالة الإسلام المحمديّ تمام التطابق؛ فكلّ من يتتبّع فقرات خطب الإمام عليّ (عليه السلام) سيجد أنّها ترادف القرآن الكريم وسنّة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلّم إذا كان للمتتبّع اطلاع عليهما؛ فكلّ فقرة وفكرة هي من ذلك النعيم أو المعين .

والكاتب يجد ضرورة بحث هذه الأصول المؤصلة لفكر وخطب الإمام عليّ (عليه السلام) بحثاً وجيزاً استكمالاً لمجمل البحث، واستتماماً للفائدة إن شاء الله.

الفصل الثالث :

الأصول القرآنية لموقف الإمام علي عليه السلام
وأوجه الإبداع الفني

كان الإمام علي عليه السلام كما سبق ذكره في الفصل الأول يسلك وفق إيمانه وعقيدته الإسلامية باستقامة تامة، وفي ظروف كانت الدعوة الإسلامية في أشدّها ضراوة من المشركين في مكة ؛ وحادثة المبيت في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي أعظم دليل على مدى تمكن الأصول الإسلامية في نفس الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وفي سلوكه وعقيدته حتى يجعل من نفسه عرضة للموت وإنقاذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليصل إلى يثرب بأمان .
والإمام علي عليه السلام تلقى قول الله جلّ جلاله من رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم : (ولقد جاءهم من ربّهم الهدى أم للإنسان ما تمنّى فلله الآخرة والأولى)[169]
وقوله : (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم)[170] وقوله جلّ جلاله : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)[171]
فعلم أنّ للفرد في حياته وسعيه إمّا عمل صالح وغايته وجزاؤه رضى الله في الدنيا والآخرة، وإمّا عمل سيء وجزاؤه سخط الله تعالى وانتقامه في الدنيا والآخرة اختباراً من الله ليتميز الطيب والخبيث والله تبارك وتعالى أعلم بهما .
هذه الآيات الكريمات مع كلّ آيات القرآن الكريم التي هي هدى وبشرى للمؤمنين ؛ تنير لهم الحياة، وتبصرهم بحقيقتها وبحقيقة البشر والكائنات فيها ومآلها وانتهائها ومصيرها هذه الآيات قد استقرت في قلب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وتجلت في سلوكه الفعلي والكلامي؛ فلمّا هذه العقيدة ضاهت أعزّ ما يملك المرء وهي حياته باع الإمام علي عليه السلام حياته لأجل رضى الله، و عرّض نفسه للموت وهو يعلم أنّ الحياة الدنيا ما هي إلا مدّة، ثمّ يلقى الله تعالى؛ فما أعظم من لقاءه إذا كان بعد فداء بالنفس وبيع للحياة لوجهه الكريم جلّ جلاله! ونزلت آية كريمة وسيدنا محمد صلى الله عليه

[169] 151سورة النجم , الآيات 23 , 24, 25.
[170] 152سورة النجم , الآيتان 29, 30.
[171] 153سورة الملك , الآية 2.

وآله وسلم في طريقه إلى يثرب بحق الإمام علي عليه السلام تتضمن : (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد)[172].

وتتواتر مواقف الإمام علي عليه السلام التي تتخذ من القرآن الكريم منيراً وهادياً؛ فمن ذلك آيات القتال والدفاع عن الحق ورد اعتداء الكفر وأولياءه والثقة بنصر الله تعالى قال الله : (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم)[173]

وقال جلّ جلاله : (وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[174]

(وإن ينصركم الله فلا غالب لكم)[175]

فكان الإمام عليّ بن أبي طالب خير مقاتل ويد ترفع سيفاً في وجه المعتدين من الكفّار والمشركين، وتفوّق على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبرز من بينهم لكلّ مبارز، وكان قائداً يدك حصن خيبر، ويقلع بابها، ويفتحها بعدما فشلت محاولات المسلمين في فتحها، وثبت في يوم أحد وحنين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدافع عن رسول الله الموت بنفسه، ويتشوق للشهادة التي وعد الله بها المؤمنين بالحياة عنده والاستبشار؛ وأي فضل ونعيم مثل ذالكم ؟! قال الله تعالى : (ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)[176].

وتأمل في موقفه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا تجد في القرآن الكريم ما يؤصله وهو قوله تعالى : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ..)[177]

فلم يكن الإمام علي عليه السلام ممن انقلب على أعقابه، فبقي على عهده رغم إحساسه بضياع حقه، فضحى بها لأجل صون الإسلام باقياً على موقفه من الحياة الدنيا ومظاهرها حتى عند استلامه الحكم وقتاله الناكثين والقاسطين والمارقين وإلى أن لقي وجه ربّه وهو في محراب الصلاة والجهاد . فلا تفسير لكلّ تلك المواقف العظيمة إلا أثر الإيمان الكامل والاستقامة التامة على شريعة الله جلّ جلاله. حتى في أدق تفاصيل الحياة اليومية المتعلقة بالأحوال الفردية الخاصة كما ظهر عند توليه الحكم، وتحكمه في بيت مال المسلمين وهو الذي عانى أشد الفقر وضيق الحال بل الظاهر أنّه ما كان يأبه لفقره الذي بمعياره هو كفاية ونجاة مما نحن عليه من معيار للفقر والغنى . فليس الفقر هو قلة المال

---

[172] 154سورة البقرة , الآية 207.

[173] 155سورة البقرة , الآية 244.

[174] 156سورة محمد , الآية 7.

[175] 157سورة آل عمران , الآية 160.

[176] 158سورة آل عمران , الآية 169.

[177] 159سورة آل عمران , الآية 144.

والمظاهر الدنيوية، وليس الغنى باكتناز المال والبهرجة بالمظاهر؛ فالغنى غنى النفس، والفقر الطمع وفقدان القناعة وعدم الرضى برزق الله .

ولما كان حال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام متأصلاً بالإسلام فلا شكّ أنّه في خطابه وآراءه كما في أعماله حالة مثالية للإسلام؛ كان الإمام علي عليه السلام أكثر المسلمين والمؤمنين تفاعلاً مع القيم الإسلامية وبالتالي مُرسِل صحيح غير ذي شوائب لهذه القيم وحقائق الحياة والبشر ..

ففي موقفه تجاه الحياة الدنيا فإنّ قوله عليه السلام بفناء الدنيا وذمّ التعلق القلبي ونية العمل بها وأحوال الناس فيها ومحاسبتهم عليها حلالاً وحراماً والانتقال عنها إلى الحياة الآخرة نستطيع أن نجد لكل منها شاهداً قرآنياً؛ فذمّ التعلق القلبي والغرور بالعمل لها نجده في قوله تعالى : (فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ..)[178]

وقوله تعالى : (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا من الآخرة إلا قليل)[179] هذه الآية الكريمة جاءت في سياق استنكار التثاقل عن القتال في سبيل الله، وهذا ما تعرض له الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من أصحابه أيضاً .

أمّا وصف أحوال الناس في الحياة الدنيا فإننا نجد بياناً قرآنياً مجملاً كما في قوله تعالى في شأن المغرورين بالحياة الدنيا :

(وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا..)[180]

(وأعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)[181]

(إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ..)[182]

(يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثمّ إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون)[183]

---

[178] 160سورة لقمان , الآية 33.

[179] 161سورة التوبة , الآية 39.

[180] 152سورة الأنعام , الآية 70.

[181] 153سورة الحديد , الآية 20.

[182] 154سورة يونس , الآية 9.

[183] 155سورة يونس , الآية 23.

ونجد أصلاً في الحديث النبوي الشريف أيضاً عن حال المغرور بالحياة الدنيا , فورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من أشرب قلبه حبّ الدنيا، وركن إليها إلتاط فيها بثلاث شقاء لا ينفد عناه، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه ..)[184]

وحال المؤمنين المتقين وما يوعدون نجده في قوله تعالى :

(ألا أنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين أمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ..)[185]

ونجد أصل دعوة الإمام علي عليه السلام للعمل في الحياة الدنيا لغاية الآخرة والتيقّن أنّ عمل الإنسان محاسب عليه يوم القيامة في غائب علم الله تعالى، وأنّ الحياة الدنيا دار لتحصيل ما ينفعنا في الدار الآخرة، وأننا لا محال سائرون إلى ذلك المصير حيث الجنّة أو النّار؛ وكلّ هذه المعاني وردت في خطبة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورد فيها :

(يا أيّها الناس إنّ لكم لنهاية . فانتهوا إلى نهايتكم، وإنّ لكم معالم . فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه. فليزود العبد من نفسه لنفسه، ومن الحياة قبل الموت؛ فإنّ الدنيا خلقت لكم، وأنتم خلقتم للآخرة. فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنّة أو النّار)[186]

ونجد فيما يتعلق بعقيدة الإمام علي بفناء الدنيا أصلها في قوله تعالى :

(إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناه حصيداً كأن لم تغن بالأمس)[187]

وفي قوله : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كلّ شيء مقتدراً)[188]

هاتين الآيتين الكريمتين صورتا الحياة الدنيا بتشبيهها في وجودها ونموها وتطوّرها ثمّ فنائها بالنبات في نموه واستواءه وذبوله ويبوسته حتى يستيقن ويتأمل المتلقي بفناء الحياة الدنيا ومظاهرها بعد وجودها ونموها .

---

[184] 156نقلاً من كتاب الترهيب والترغيب .إلتاط : أصيب .

[185] 157سورة يونس , الآية 64.

[186] 168نقلاً من كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي.

[187] 169سورة يونس , الآية 24.

[188] 170سورة الكهف , الآية 45.

والحق أنّ القرآن الكريم والحديث الشريف كانا معيناً تعبيرياً للإمام علي عليه السلام؛ فوردت في بنية النص العلوي اقتباسات من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف .
وكان الإبداع الفني العلوي حاضراً، بل ناشطاً ينبئ عن قريحة قوية وخيال خصب غني وجدير بنا أن نبحث في الجوانب الإبداعية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في موقفه الخطابي تجاه الحياة الدنيا نموذجاً مختصراً عن إبداعه الشامل بكل القضايا والمواضيع التي طرحها في خطابه؛ فكانت خطبه قطع فنية نثرية تدهش المتلقين لجمالها الأخاذ وجاذبيتها العجيبة .

* أوجه الإبداع الفني عند الإمام علي عليه السلام:

إن كان النص العلوي رديفاً أو دائراً في فلك القرآن الكريم فهو يبين مدى أثر القرآن الكريم في الفرد المتلقي الصالح؛ فصار الإمام علي (عليه السلام) ناطقاً بالقرآن الكريم إمّا نصاً أو إبداعاً فنياً؛ فلم يكن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ناقلاً لصور القرآن الكريم عن الحياة الدنيا مثلاً وهو موضوع بحثنا نقلاً تاماً دون التفاعل الإيماني والعاطفي الذي كان نابعة أساساً من معاناة وتجربة عميقة في نفس الإمام علي عليه السلام أخذت معظم مراحل حياته الزاخرة؛ ولذا فإنّ شرط الإبداع الفني وهو المعاناة أو التجربة الشعورية تحققت عند الإمام علي عليه السلام؛ فنثر إبداعاً فنياً في خطبه معبّرا أصدق تعبير عن عقيدته وإحساسه الحي ودعوته للحق والتمسك به والجهاد في سبيله فكانت الخطبة حالة إبداعية فنية؛ وإن احتوت أصولاً إسلامية سواء نصوص أم عقيدة ؛ فإنّ النص القرآني كان وروده في بنية النص العلوي وكأنه القطب الذي تدور حوله كلمات وصور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ فكان هذا تشكيلاً لنص إسلامي جديد بمصدر بشري متفاعل أشد التفاعل مع النص القرآني .
فانظر إلى هذا القول الجميل المتساوق للإمام علي عليه السلام :
(ألا وإن القدر السابق قد وقع، والقضاء الماضي قد توّرد، وإني متكلّم بعدة الله وحجته؛ قال الله تعالى : (إنّ الذين قالوا ربنا الله ثمّ استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون) . وقد قلتم : (ربّنا الله) فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ، ثمّ لا تمرقوا منها ، ولا تبدعوا فيها، ولا تخافوا عنها، فإنّ أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة . ثمّ إيّاكم وتهزيع الأخلاق، وتصريفها، واجعلوا اللسان واحداً، وليخزن الرجل لسانه . فإنّ هذا اللسان جموح بصاحبه. والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه؛

وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه؛ لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبّره في نفسه؛ فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شرّاً واراه، وإنّ المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)، فمن استطاع منكم أن يلقى الله تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم سليم اللسان من أعراضهم فليفعل)[189]

ما نلاحظه من قراءة هذا النص السابق وغيره من النصوص العلوية أنّ الفن الخالص يتحقق لسبب بسيط هو الروح المتقدة للإمام علي عليه السلام أو لأنّ الإمام صادق فيما ينثر من كلمات مرصوفة بفنية مبدعة؛ فأنت تجد المقاطع القصيرة والسجع الطبيعي بلا تكلّف وتصنّع، والانتقال من فكرة إلى أخرى بسلاسة وترابط .

فإذا كان الفن حدساً كما يراه بعض[190] فإنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان يتكلّم بحدسه وحدسه كان أخلاقياً، وكان عملياً، ويريد أن يجعل من حوله على شاكلته المستقيمة.. وهذا هو الفرق العظيم والشاسع بين داع غير واع أو غير متفاعل بما يدعوا إليه أو غير متمثل لدرجة الترابط مع الذات والشعور الكلي عند الإنسان وبين داعٍ واعٍ تماماً لدعوته؛ أي مترابط مع عقيدته، وما يدعوا إليه.

فانظر إلى تجليات الشعور والرهافة الحسية في قوله عليه السلام (وليخزن الرجل لسانه فإنّ هذا اللسان جموح بصاحبه. والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه؛ وإنّ لسان المؤمن وراء قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه ..) فبعد الدعوة إلى الأخلاق وعدم اللغو والتفوه بما لايرضي الله فأكد ذلك بصورة فنية (فإنّ اللسان جموح بصاحبه)، فالإمام عليه السلام يعلم أنّ المشكلة الكبيرة تكمن في اللسان وما يتفوه به المرء هنا وهناك، فكان أثر تلك المعرفة أنّ حركت شعوره بأكثر ما تحركت، ونثرت قريحته صورة فنية هي نتاج الشعور والنظر والتخيل في المشكلة التي عرفها، وأراد حلّها؛ وتبقى التجربة الشعورية عند الإمام عليّ عليه السلام محكومة بموقف الخطيب الرابط الجأش البعيد عن الانغماس في عالم التخيل والترميز، والمتحكم بقوة الإرادة والفعل، والمقيد للعواطف بلا إلغاء؛ بل تتجلى عاطفة أو شعور المعرفة والإقناع بها في قسمه؛ فهو لا يتكلم بفكر فلسفي أو توصيف خارجي، بل يتكلم بعاطفة عن حقائق ورؤى منطقية ؛ إنّه امتزاج العقل

[189] 171خطبة رقمها 175 ص 209 .

[190] 172بندتو كروتشه , المجمل في فلسفة الفن , ص 28 وما بعدها .

والعاطفة و النظر والتخيّل فلا يطغى أحدهما على الآخر . هذه هي الخطابة عند الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

وأوجه الإبداع الفني يتجلى في الصورة الفنية المبتكرة التي تظهر في سياق الخطبة وكأنّها تعبير عن تفاعل الإمام في خطبته ووصوله لحالة القوة التخيلية التي تثيرها قوة شعوره وعاطفته وهو قائم أمام مستمعيه يلقي عليهم الخطبة، وينظر في عيونهم ووجوههم وكأنّه يعاين حاجتهم لتلقي ما يشفيهم. ويتجلى بتجاور أساليب الخبر والإنشاء هذا الإنشاء يأتي في سياق تحرك العاطفة التي تريد الإقناع بالمعرفة التي عند الإمام علي عليه السلام .

ويتجلى في اتساق تراكيب الخطبة وميلها إلى القصر والسجع الطبيعي إذ تعبّر عن حالة شعورية قوية متمكنة لأنّها ليست متكلّفة ولا متصنّعة، بل القارئ والسامع يتبن له أنّه يتلقى كلمات متراصة منثورة بفنية عالية كالألوان الجميلة المتوافقة المتجانسة كسنن الحياة ومظاهر الكون المتجانسة بلا أيّ تكلّف أو تنافر؛ إنّها تعبير حيّ عن توافق نفس الإمام (عليه السلام) مع عقيدته، أو ترابطهما أكمل الترابط فعقيدة الإمام علي هي فكره ونظرته، وما يمتلكه من شعور وإحساس بالكون والإنسان، فكان ما يصدر عن الإمام علي عليه السلام من فن هو تعبير عن ذلك الإحساس والشعور المنبثق من الإيمان الكامل إذا كان الفن محاكاة للكون أو هو خلق جديد ظهر في الحياة .

إنّ أهم مستند استند إليه فيما أذهب إليه هو تملك نصوص الإمام علي عليه السلام للمتلقي بما يعني انجذابه واستيقاظه واستسلامه وتعجبه وخوفه أحياناً حسب موضوع النص .

وهذا يعني أنّ كلمات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نص إسلامي حدث بعد نزول القرآن، وصدور الحديث النبوي الشريف، فهو امتداد لهما، فهو وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمن الكامل والمجاهد الأكبر .

وتجليات الإبداع عند الإمام علي عليه السلام في المعاني أيضا ؛ فالمعاني العلوية، وإن كانت قرآنية ونبوية فإنّ الإمام علي عليه السلام نطق بمعانٍ تزيد النصوص الإسلامية تفصيلا وتنويعاً تنمّ عن إحساس عميق وحدس قوي متفاعل مع الكون والإنسانية؛ فانظر في قوله الاتي الذي جاء بعد إلقاءه خطبة دعا فيها كالعادة إلى الالتزام بالأحكام الإسلامية الخلقية مازجاً بين أسلوبي الخبر والإنشاء بتراكيب مفصولة وبقليل من الصور الفنية وبألفاظ سهلة مألوفة وبإلقاء قصصي؛ كلّ ذلك جعل الخطبة تنفذ بتأثير قوي في نفوس المتلقين، ووصل حدس الإمام وشعوره بالمحيط الإنساني لدرجة فنية عالية في نهاية الخطبة وكأنّها شحنت قريحته بالطاقة الإبداعية أثناء إلقاءها دلالة على صدقه

ومعاناته، فتكون كالوجبة الأخيرة الدسمة من الدعوة المترابطة بالحدس الفني، وهذا كان في ختام خطبته، فقال عليه السلام :

(إنّ البهائم همّها بطونها، وإنّ السباع همّها العدوان على غيرها، وإنّ النساء همهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها؛ إنّ المؤمنين مستكينون.. إنّ المؤمنين مشفقون.. إنّ المؤمنين خائفون..)[191]

بهذا جمع الإمام علي عليه السلام الناس كلّهم في ثلاث أسطر فنية تحمل في طياتها حال الإنسانية في الحياة الدنيا؛ فالذين لا همّ لهم في الحياة إلا بطونهم يملؤونها بأنواع الطعام والشراب، ولا يسعون في حياتهم إلا لهذا، ولا يفقهون معنى لحياتهم إلا بتحقيق ذلك هم كما شبّههم الإمام عليه السلام بالبهائم، والذين لا همّ لهم ولا عمل إلا التعدّي على الآخرين بلا أي وجه حق، بل بدوافع أنفسهم الشريرة، أو هم أدمنوا على التعدّي، فلا يريدون أن يرتدعوا؛ فأولئك شبّههم الإمام عليه السلام بالسباع، والنساء غير الصالحات منهن لا همّ لهنّ في الحياة إلا زينتها في لباسهنّ أو بيوتهنّ وحتى على وجوهنّ وأجسادهنّ كلّ ذلك يؤدي إلى الفساد؛ فساد النساء وفساد من حولهنّ فساد المال والوقت وأحياناً كثيرة فساد البيت والأسرة وفساد الصديقات والأهل وفساد الرجال والشباب وهم ينظرون إلى زينة النساء المتبرجات، ويغترون بهنّ .

وبقي المؤمنون وهم على إيمانهم مستكينون.. فلا يسعون لما هو زائل أو مضر وهم مشفقون من غضب الله فلا يعتدون على الآخرين وهم خائفون من يوم تتقلب فيه الأبصار؛ أي يوم القيامة أو على إيمانهم وعملهم الصالح من سوء العاقبة؛ وكأنّ توالي إنّ واسمها وخبرها تبين تأكيد الإمام علي عليه السلام لما هو كائن في نفسه أولاً، وما هو كائن عند المؤمنين ثانياً، والدعوة إلى الإيمان والحق ثالثاً، فكان إيحاء الألفاظ الثلاثة التي هي أخبار إنّ له دور كبير في تحميل المعاني الكثيرة . والحقّ أنّ الإمام علي عليه السلام كان له خطبة أخرى استخدم فيها الألفاظ الإيحائية و المتوازنة و ذات الدلالات التصويرية كما في قوله عليه السلام في وصف الدنيا :

(ألا وهي المتصدية العنون والجامحة الحرون والمائنة الخؤون والجحود الكنود والعنود الصدود والحيود الميود؛ حالها انتقال، ووطأتها زلزال، وعزّها ذلّ، وعلوها سفل، دار حرب وسلب ونهب وعطب، أهلها على ساق وسياق ولحاق وفراق . قد تحيرت مذاهبها، وأعجزت مهاربها، وخابت مطالبها، فأسلمتهم المعاقل، ولفظتهم المنازل، وأعيتهم المحاول، فمن ناج معقور ولحم مجزور وشلو مذبوح ودم مسفوح وعاض على يديه وصافق لكفّيه ومرتفق بخديه وزارٍ على رأيه وراجع عن

---

[191] 173ون الخطبة رقمها 152, ص175.

عزمه وقد أدبرت الحيلة، وأقبلت الغيلة، ولات حين مناصٍ، هيهات هيهات! قد فات ما فات، وذهب ما ذهب، ومضت الدنيا لحال بالها (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين))[192]

كلمات وتراكيب موسيقية متوازنة بيّنت حدس الإمام عليّ عليه السلام بهذه الحياة وأهلها مازج بين حدسه ودعوته، فدعا إلى ما يدعوا إليه وهو الناطق بالإسلام للابتعاد عن حبّ الدنيا إلى حبّ الآخرة وعدم التعالي على المتقين وعدم التواضع لغيرهم ممن رفعتهم الحياة الدنيا ليصور الحياة الدنيا ومظاهرها وهو ينهى عن التعلق بها بصور تعتمد على الألفاظ الإيحائية ذات الدلالات المتعددة وعلى نسق متوازن يحمل نظماً موسيقياً كما لاحظ القارئ؛ فمن صورة المرأة المتبرجة للرجال لكنّها تعنّ عليهم، ولا تستسلم لهم إلى صورة الدّابة الحرون التي لا تنقاد، ولا تسير إذا رُكبت، و صورة الكاذبة التي لا تفي بوعد، والخائنة التي لا تؤدي أمانة، و صورة الجاحدة للخدمات التي قدمت لها، والكافرة بالنعمة وصورة الكثيرة العناد والصدود والهجران وصورة الكثيرة الميل والانحراف والاضطراب بالإنسان؛ ويتغير سياق وزن الألفاظ بلا تغير للسياق المعنوي والتصويري للحياة الدنيا وحال أهلها؛ فبيّن الإمام علي عليه السلام اضطرابها و تناقضاتها وأحوال أهلها المنتظرين للموت يلحق الباقي منهم السابق تصيبيهم الحيرة، ويعجزون عن الهرب من الموت والخلاص، وكلّ ما تحصّنوا به من الموت لا يفيد، بل يصيبهم من الدنيا المصائب والبلايا تجعلهم على أحوال شتى لا ينفع معها الرأي ولا الحيلة، بل الدنيا تسير بهم إلى ما تريد من هلاكهم، وكلّ تلك المشاهد والكلمات الموزونة والمنتظمة موسيقياً جاءت مترابطةً في سياق الخطبة ؛ كلّ فقرة سابقة تبنى عليها الفقرة اللاحقة؛ فلا انقطاع مفاجئ، ولا انتقال بلا سبب بل الخطبة كالزهرة التي تنمو، وترتفع، وتزهر حتى تنتج الرحيق حيث يرتكز قوله تعالى في قمة نمو الخطبة :

(فما بكت عليهم السماء و الأرض و ما كانوا منظرين) سورة الدخان آية 29

وكان للإمام عليّ عليه السلام صور أخرى لحال الدنيا والإنسانية كاللوحة التشكيلية مثل قوله عليه السلام في خطبة له؛ ونرى فيها قبل الصورة إرهاصات لها تحمل الوصية بالتقوى والتحذير من الدنيا، وتبدأ عمليات التصوير عندما شبّه الإمام علي عليه السلام الدنيا بدار في طريق سفر بعيد و يصور ساكنها بصورة المسافر الراحل والمفارق قال الإمام عليّ عليه السلام :

---

[192] 174من الخطبة رقم 233, ص 287 اعلاقها : نفائسها , محروبة : مسلوبة منهوبة , المتصدية : التي تعرّض نفسها شبهها بالمرأة التي تتعرض للرّجال تريد الفجور , العنون : مبالغة (عنّ) إذا ظهر ومن الدواب المتقدمة في السير , الحرون : الممتنعة من السير , المائنة : الكاذبة الحيّود : كثير الميل , الميود : من (ماد) إذا مال واضطرب , الحرب : سلب المال والعطب : الهلاك

على ساق وسياق : القيام على الساق : الاستعداد والتهيّؤ فهم بين منتظر للممات وبين من هو في حالة سياق وهو الشروع في نزع الروح من البدن .,

المحاول : جمع محال أو محالة : الحذق وجودة النظر أو جمع محاولة وهي الحيلة , المعقور : المجروح , الشّلو : العضو من الميت أو القتيل , مرتفق بخديه : جاعل لهما على مرفقيه فكراً وهمّاً , الزّاري : العائب اللائم , بالها : قلبها مضت لحال بالها : أي ذهبت لما يهواه قلبها ولم تهتم لأمر القوم .

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحذركم الدنيا؛ فإنها دار شخوص ومحلة تنغيص؛ ساكنها ظاعن وقاطنها بائن)[193]

وكانت هذه الصورة أولية معهودة منه عليه السلام تفتح الطريق لصورة إبداعية متعددة الأطراف ذات مساحة حركية إذ يستجيب تخيل الإمام علي عليه السلام الواسع الخصيب ليصوّر الدنيا وحال الإنسانية فيها بصورة السفينة وركابها في لجة البحر حيث العواصف تقصفها، فيؤدي ذا إلى انقلاب السفينة وركابها وغرق بعضهم ونجاة بعض الآخر لفترة مؤقتة ليتعرضوا أيضاً للهلاك .

قال الإمام علي عليه السلام :

(تميد (أي الدنيا) بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف في لجج البحار، فمنهم الغرق الوبق، ومنهم الناجي على بطون الأمواج)[194]

فهذا مشهد متحرك في أجزاءه في مكان واحد , وهو يدلّ على واقع الدنيا وأهلها؛ الواقع غير المستقر والمبتلى والمتعرض للمصائب، وأوصل الإمام هذه الدلالة بصور حفزت ذهن المتلقي، وأخذته إلى تخيل سفينة في لجة البحر تتعرض للعواصف وأهلها ما بين غريق وناج .

وأردف الإمام عليه السلام هذه الصورة بصورة أخرى حركت المشهد، وأعطته مساحة مكانية منتقلة كشريط فيلم يصور واقعة بتفاصيلها تركيزاً على الإنسان الناجي وخضوعه لريح العاصفة التي تروح به، وتجيء حتى يلقى الهلاك . قال الإمام علي عليه السلام :

(تحفزه الرياح بأذيالها، وتحمله على أهوالها، فما غرق فليس بمستدرك، وما نجا منها فإلى مهلك)

والتقارب بين هاتين الصورتين وبين وقائع الحياة الدنيا والإنسانية واقع؛ فالحياة الدنيا كالسفينة وحال ركاب السفينة من الميدان والتعرض للعواصف والغرق والهلاك كما حال الإنسانية في الحياة الدنيا غير مستقرة يتعرض كلّ إنسان لشتى حالات الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية والنفسية والجسدية، وكلّ إنسان لا يثبت على حال، فهو ينتقل من حال لآخر، فلا سرور دائم ولا صحة دون تعرض للمرض ولا غنى بلا ضيق الحال والفقر سواء على مستوى الفرد أم مستوى الجماعة . فما هو مصير الإنسانية والحال كذا ؟ نعود إلى الصورة ؛ فنجد أنّ الذين تعرضوا للعواصف منهم من غرق، ومات، ومنهم نجا إلى حين تتلاعب به الريح حتى يهلك هو الآخر؛ وهذا شبيه بحال الإنسانية في الحياة الدنيا؛ فإنّه ما إن يتعرض الإنسان لعاصفة من المصائب، فإمّا يلقى حتفه بها، وإمّا يقاوم،

---

[193] 175من خطبة رقمها 187, ص 230.

[194] 176من الخطبة نفسها .

ويعيش إلى حين يلقى المصيبة تلو المصيبة والمنغصة تلو المنغصة ، حتى تنهد قواه، ويموت هو الأخر إمّا كمداً أو مرضاً أو فقراً أو قتلاً أو أي سبب آخر؛ هذه هي وقائع الحياة الدنيا يصورها الإمام عليه السلام تشبيهاً بوقائع السفينة وأهلها عند تعرضهم للعواصف لينتهي الإمام علي عليه السلام إلى الدعوة إلى العمل الصالح والمرء قادر صحيح الجسد والنفس، ولا شاغل يشغله قبل أن ينتهي به المصير إلى الموت، ولا عمل صالح يقدم به المرء على ربّه. قال الإمام علي عليه السلام : (عباد الله ؛ الأن فاعملوا والألسن مطلقة، والأبدان صحيحة، والأعضاء لدنة، والمنقلب فسيح، والمجال عريض، قبل إرهاق الفوت، وحلول الموت، فحققوا عليكم نزوله، ولا تنتظروا قدومه)[195] كذلك جعل الإمام علي عليه السلام الفن في عمق الحياة أداةً للتغيير وهو المؤمن الكامل والمجاهد في سبيل الله والعارف بحقائق الحياة الدنيا والمكتشف لحقيقتها؛ فالفن عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وجه غير هامشي، و غير مجرد للتسلية أو للهو، أو هو منفصل عن الحياة وتدافع أهلها؛ الفنّ عنده عليه السلام هو الوجه المعبّر لكلّ ما يشتمل عليه الإمام علي عليه السلام من إيمان كامل وعمل خالص معصوم، وسلطة ملتزمة عادلة ؛ إنّه الوجه الحدسي والعاطفي المتقد بالطاقة الجهادية والقوة الإيمانية .

نتائج وخاتمة :

وينتهي الكاتب للقول بعد تتبع جوانب من سيرة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام التي هي من تاريخ الإسلام وسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي الصيرورة الإسلامية وفق تجلياتها العلوية المحمدية السنّة والقرآنية المصدر، وبعد محاولة الولوج في بحر الإمام علي عليه السلام الخطابي والفكري والفنّي التي أوصلنا إليها كتاب نهج البلاغة.. رحم الله جامعها، وجعل ثوابها في صحائف أعماله؛ فلا تنقطع ما دام يوجد من يستضيء بنورها، ويقيم اعوجاجه باستقامتها.. بعد كلّ ما لا يدرك كلّه، فلم نترك جزء منه ؛ أنّه كان موقف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عملياً موقف عطاء وجهد وبذل للنفس في سبيل الله ودعماً لرسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بدون أي حسابات دنيوية تتعلق بشهوات، أو تطلعات إلى مغانم ومكاسب مالية أو سلطوية ، أو بحرص على الحياة، أو بكره من الموت؛ بل كان الموت في سبيل الله أحلى عليه، وآنس إليه من أنس

[195] 177الخطبة نفسها .

الطفل بثدي أمّه كما قال عليه السلام، وكان موقفه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبباً حاسماً للحفاظ على الإسلام وأهله .

وكان موقف الإمام علي عليه السلام الخطابي دعوة ملحة للجهاد في الحياة الدنيا سواء جهاد النفس أم جهاد العدو دفاعاً عن الحقّ، ودعوة لعدم الاستكانة والتعلق بالحياة الدنيا تعلقاً قلبياً ؛ أي تعلق نية العمل بالدنيا لا بالآخرة، ودعوة لتحويل العمل الدنيوي إلى عمل للآخرة؛ وذلك بإخلاص النية لله تعالى ومراعاة شريعته الإسلامية، ولو على حساب العمل الدنيوي؛ فالضرر إذاك أعظم لأنّ ضياع الدين أعظم من ضياع الدنيا، فمصير الإنسان أخيراً إلى حساب الله جلّ جلاله .

وموقف الإمام علي عليه السلام الخطابي كان تعبيراً عن إيمان صادق وقّاد مشتعل بالطاقة الهائلة وعن ممارسة وتجربة طويلة في الحياة الدنيا ومحطاتها التي كانت لا تبرح أن تهدد حياته، فتعوّد أن يواجه الموت وهو مؤمن خالص لله تعالى مصدّق بجزائه العظيم وهو لقاء الله بالرضى , والاستبشار .

وبذلك نطق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بنص إسلامي خالص متفاعل بالقرآن والسنّة لأعظم درجة ؛ بلا تحويرات أو انحرافات لحد العصمة، وعدم الشطط في الدعوة .

فكان الإمام علي بن أبي طالب إمام المسلمين والمرجع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد تحقق ذلك عند شيعته من المسلمين وعند عامتهم والخلفاء لكن دون شيعته، فكان الإمام علي عليه السلام استمراراً وامتداداً وتحقيقاً للإسلام تحقيقاً واستمراراً في غاية المثالية، فكان بعمله وقوله أعطى فهماً صائباً للإسلام مع تطبيق صارم حاسم غير مضطرب، ولا متقلب طوال حياته إلى موعد استشهاده، فلم يبتدع، ولم يغيّر، ولم يؤول في الإسلام، ولم ينجرّ وراء المهاترات والمراوغات المنحرفة التي كانت حال أعداءه المفتونين .

ولا بدّ من القول أنّ القرآن الكريم هو الثقل الأكبر في الإسلام والحبل الذي يصل الأرض بالسماء أي يصل الإنسان بالله، فإذا أراد الإنسان أن يتلقى كلام الله فعليه بالقرآن إذ يجد كلام الله له وللإنسانية جمعاء، ولا يستطيع أحد أن يستوعب ما ينفعه من القرآن إلا إذا كان نظيفاً من لوثة الكفر والعناد والإلحاد . وكذا كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك الفرد الصالح الكامل المجاهد الأكبر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاتخذ القرآن الكريم أساس سلوكه وفكره، فكان محافظاً على الإسلام واجه ما يشبه مواجهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عقبات من أعداء وخصوم ومنافقين وخوارج ، فكان ذلك استمراراً للتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل في ظروف وأشكال

متنوعة فبدلاً من الصراع أو القتال على نزول القرآن الكريم وصحة نسبته إلى الله صار القتال على تأويل القرآن وأحكام الإسلام ومدى تنفيذها . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديث يؤيد ذلك : (أنا أقاتل على تنزيل القرآن ، وعليّ يقاتل على تأويله)[196]

ولم يكن هذا البحث سوى دراسة ما استطاعت أن تحيط بشخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الغنية الفذة؛ لكنها حاولت أن تقدم باختصار صورة عن موقف الإمام علي عليه السلام من الحياة الدنيا القضية الكبرى لكلّ إنسان؛ لعلها كشفت عن جوانب خافية عني وعن أمثالي السائرين في طرائقها العديدة والكثيرة منها الملتوية ، وتوردنا المهالك وهي تفتننا باقتحام مظاهرها البراقة مثل المال والسلطة والشهرة والرياء والسمعة..الخ كلّها ظواهر جميلة في ظاهرها أو في نظرنا، وما وراءها ، أو ما ينتج عنها قبيح ينفر منه الإنسان بطبعه، فما يدفع الإنسان في سبيلها لو تأمله لوجده لا يستحق منه ذلك، ولعلم بتفاهة تتدافع الناس في ما لا يستحق منهم، ولكن ذلك مصداق لقول الله عزّ من قائل :

(ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً) سورة الملك آية 2.

فهل التدافع على مظاهر الحياة الدنيا هو أحسن العمل!

حقاً كان الإمام علي عليه السلام الذي عرفت به الإسلام ، وأرى الكثيرين ممن عرف الإسلام به عليه السلام وهم أكثر مني معرفة كان خير من يعرّف بالإسلام وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ المعرفة التي لا انحراف فيها، ولا اعوجاج في أهدافها ؛ المعرفة التي تبين أثر الإسلام الحقيقي في الإنسان إذا أراد أحد معرفة جدوى الإسلام التاريخية والإنسانية ؛ فالإسلام الحقيقة الكبرى الكاملة في العالم، وليس لنا سوى اللجوء إلى رسالته وهو القرآن الكريم ، وإلى مبلّغه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى من كان حقاً ظاهراً وباطناً عملاً وقولاً دائماً بلا تقلب و لا انحراف وهو بلا نزاع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كما ظهر لنا ذلك جانب مهم في بحثنا هذا.. فكان المسلم الكامل، وخير نموذج عن المسلم الذي يتبع القرآن والسنّة المثال النزيه الشريف المنضبط وصدق قائل في مؤتمر عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بأن مراحل حياة الإمام عليّ (عليه السلام) من الفتوة إلى الشباب إلى الكهولة .. تستحق الإقتداء بها إنّها تلّخص جدوى الإسلام لكلّ مراحل العمر؛ هي أخلاق مؤسسة على إيمان كامل بالله تعالى . ولا بدّ من الإشارة إلى

---

[196] 178 حديث رواه ابن حنبل في مسنده وفي فضائل الصحابة رواه أيضاً الحاكم في مستدرك الصحيحين والنسائي في خصائصه والحافظ أبو نعيم في الحلية وابن الأثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وقال الحاكم في المستدرك هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . نقلاً عن مخطوط : الإمام علي في البيان النبوي للسيّد محمد محمود القادري .

أنّ انتصار الحق هو الأصل، ولو حاول الباطل زحزحته من الوجود . أليس الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المنتصر ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان هو المنهزم شرّ الهزيمة ؛ لأنّ معاني نهضة الحسين عليه السلام هي الأعلى والأسمى ، وتلقى كلّ الاحترام والتبجيل ؛ وأيضاً قبله سيدنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام انتصر، وفاز ؛ لأنّه فارق الحياة الدنيا وهو ثابت على موقفه الإسلامي الذي سيلقى به حساب الله أحسن الحساب والجزاء والدليل قوله (عليه السلام) :

(فزت وربّ الكعبة)[197] عندما ضربه غيلة الخارجي ابن ملجم .

ومن تصور أنّ الإمام عليّ عليه السلام قد خسر الصراع، وخرج منه دون تحقيق أهدافه فهو واهم ؛ لأنّه لا يفهم الإمام عليّ عليه السلام وناسٍ لحساب الله، أو كافر به، ومفتون بالدنيا... وكأنه لا حساب بعد الدنيا، ولا آخرة ؛ إذن فلا بدّ من السعي للانتصار في هذه الحياة الدنيا بأي ثمن، وبدون مراعاة للحقوق لذا نجد قيم القوة والقتال تتجه عند أولئك إلى ما يسوء الإنسانية لا إلى ما يصلحها كذلك هو صراع الحق الأصيل والباطل الطارئ؛ لكن رغم تضاربهما يبقى الحق حقاً والباطل باطلاً، فلا يستطيع الباطل أن يكتسب صفة الحق ولو اكتسبه عند أصحابه، فثمة من يرى أنّ القوي هو على حق بلا أي معيار آخر سوى أنّه قويّ يفرض نفسه، ومعلوم أنّ فرضه مؤقت، وكم رأينا اندحار الباطل أمام الحق، أو اندحار أهل الباطل بقوتهم الظاهرية العرضية أمام أهل الحق المستضعفين . أجل فالحق قوي يعطي صاحبه القوة ذلك هو سرّ الانتصار، فالباطل رغم تدعيمه بالقوة الظاهرية لكنها تبقى قوة مصطنعة ومؤقتة حتى إذا ما واجهت قوة الحق اضمحلت، وانزوت منهزمة قال الله عزّ من قائل : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ..) سورة الأنبياء الآية 18.

وبعد :

فإن كنت وفقت في تأليف الصورة الصحيحة لموقف الإمام علي عليه السلام ؛ فذلك من الله، وإلا .. فأرجو منه العفو والمغفرة.. وللقرّاء الاعتذار؛ فحسبي إني حاولت أن اطلب العلم والبركة والحمد لله ربّ العالمين أولاً وأخراً.

---

[197] 179هاشم معروف الحسني , سيرة الأئمة الإثني عشر , المجلد الأول ص 451.

المصادر والمراجع :

1 القرآن الكريم.

2 كتاب نهج البلاغة جمعه الشريف الرضي بتحقيق العطار دي طبعة المستشارة الإسلامية الإيرانية في دمشق عام 1997.

3 شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد المعتزلي طبعة دار مكتبة الحياة بيروت عام 1982

4 خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للمحافظ النسائي تحقيق محمد باقر المحمودي.

5 الامام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين محمد رضى

6 سيرة الأئمة الاثني عشر الجزء الأول هاشم معروف الحسني دار التعارف بيروت

7 كتاب علي في القرآن السيد صادق الشيرازي

8 الامام علي عليه السلام ومكانته في البيان النبوي السيد محمد محمود القادري دار التعاون دمشق 2009.

9 في رحاب أئمة أهل البيت المجلد الأول السيد محسن الأمين العاملي

10 الغدير في الكتاب والسنة والأدب الجزء الأول عبد الهادي الأميني

11 ينابيع المودة سليمان بن الشيخ إبراهيم الحسيني البلخي الحنفي دار الاعلمي

12 معالم المدرسين السيد مرتضى العسكري

13 خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الشريف الرضي

14 علي إمام الأئمة السيد أحمد حسن الباقوري

15 من التاريخ الإسلامي الدكتور نزية شحادة دار النهضة العربية بيروت

16 الهجاء والهجاءون الدكتور محمد محمد حسين دار النهضة العربية بيروت

17 دعاء كميل مؤسسة الوفاء بيروت.

18 الترهيب و الترغيب.

19 أدب الدنيا والدين الماوردي.

الفهرس

تعريف بالمؤلف :
حسين بن محمد محمود بن إبراهيم بن ظاهر بن محمد باقر الحسيني القادري تولد عام 1976 عامودة سورية .
درس اللغة العربية وآدابها في جامعتي بيروت العربية ودمشق .
درس العلوم الشرعية لمدة ثلاثة أشهر في معهد السيدة رقية ع في دمشق .
عمل مدرسا للعربية في الثانوية الشرعية في الحسكة سورية.